سعيد عقل

شعره والنثر

المجلّد الرابع

كأس لخمر
اجراس الياسمين

نوبليس



سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الرابع

كأس لخمر

اجراس الياسمين

نوبِليسُ

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ ــ الطبعة الرابعة ١٩٩١

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ ــ الطبعة الثالثة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ــ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلد الرابع

كأس لخمر
اجراس الياسمين

كأس الخمر

الطبعة الأولى ١٩٦١
الطبعة الثانية ١٩٦١

سعيد عقل أعظَم من كتب النثر في العربية

سعيد تقّي الدين

أطلعتهم طرفاً كما

بالحسن نطقت القدودُ

ليكوكبوا انت السماء

ليزهروا انت الصعيد

هل خمرة لو لم تشعشع

في يديك وهل قصيد؟

بولس سلامه

ما خفت على نثره من شعره، بل عجبت لثنائية في الابداع.

هذا القلم المطيب، حين يقدم لرفاقه يشدهم اليه بلولبة حد البراعات، حتى لكأنه هو المعني.

خلاصات روائع هي، هنا بين يديك، مختصر لنهضة ومنطلق الى اجمل، اسرع الجديد فيها الي هدأة المركز، فالطرافة في عمق المبدأ.

سعيد عقل، يستحيل ألا يروع.

انطوان قازان

أغنية اللون والحجر

قدم بها لمعرض التصوير
والنحت الذي أقامته « الرابطة
الثقافية » في عاليه عام ١٩٥٣

« المدرسةُ اللبنانيةُ » في الفن ! لا يزال باكراً أمرُ القول بها.

مع أنه...

منذُ اندلاعِه، من تحت البحر، جبلاً ــــ شاطئاً (ملعبَ ميتولوجية فاخرة لأنها جاءت أبعد ما يكون عن مسوخ البصر والعاطفة) حتى توكيدنا عليه رقعةَ أرض معطاء تجهد وتكشف، تُمدّن وتُحِبّ، أي منذ ادونيس وعشتروت، رافعَي الحب الى قوة الموت، الى فخرِ الدين النابض قلبُه مع قصور فلورنسا، مرّاً بموخوس الصيدوني أب الذرة أو

أليسا مؤسسة قرطاجة امبراطوريةً أجمل الامبراطوريات، تلك التي تتعادل فيها قرقعة المطارق واصطكاك السيوف، إنما كان ينبغي أن يكون لبنانُ بين أسخى رِقاع الدنيا على الأزميل والريشة.

ولكن أين هي تحفُنا ؟

تُراها دُمّرت في الذي دُمّر أم آثرت أن تبقى داخلية فنُقشت أو صُوّرت نفوساً كبيرة، أم تَطلعّتْ الى عظمة القلّة، فإذا هي « بعلبك » المتفردة مشرورةً بين واحتها وبرلين أو « قبر الاسكندر » المعافى الضربات، متلألئاً، ولا أجمل، في مُتحف اسطنبول، لا يعُوزه سوى جوّ المجد الصيدوني الذي منه اقتُلع ؟!

يا للموضوع الشهم ! ندفعه الى تلامذتنا يُعمِلون فيه عِلْماً ومخيّلةً أنيقة. ويا لمأساة واحدُ اشخاصها فوق « بروميسيوس » ايسخيلوس. فضلاً عن كونه أمّة بأسرها لا فرداً.

بلى ! إنه لمن مكمّلِي القرم الى الذين سدّد الجميّلُ الخيّر أصابعهم الناشئة، حريصاً حبّةُ البحر على توصيتهم

بأن يتخطّوه، ومن عارياتِ الحويّك المتفجّرات كما الينابيع في الجبل حُسْناً يندفق من صخر، الى طموح أزاميلنا الفتية الصراحة، إنما تقوم مدرَسَةٌ بنتُ نصف قرن لا يزيد. بيد أنها، إن وُوجهت بحبّ بدَت غير فقيرة.

وسط « الجو الاضطرابيّ » القائم في الغرب على تطلّب الجديد للجديد، الجديد وإن بَشِعاً، لم يشتطَّ فنانو الجبل. أعن تقاعُسٍ كان عندَهم هذا الخير ؟ ما أظنّ ما أظنّ. وفي غمرة الطيش وفوضى المعايير ظَلّوا في معظمهم أبناء معايير.

ومثّلوا روح لبنان. فبدا في بشرتهم ورضى وجوههم مسحةٌ مزيجٌ منعش من براءة وأناقةٍ وانسان.

هذا الى أنهم لم يُعدموا عند اللزوم أن يُقدّموا تقدماتهم للغرابة، الهة الآلهة.

أما الرأس، وأمّا العُري محكُ كل فنّ ـــ ووسيلة كل فنّ كذلك ـــ فقد عالجوهما بشجاعة. وإذا عندنا عليهما مجموعةٌ غيرُ قليلة بعضُها يتنفس رفعة ولا أجمل.

وتشوّفوا الى رياضة جميع التقنيات.

وكانوا، متى طُلِبَ اليهم التطلّعُ الى الفنّ الكبير — ذلك المزيج من سعة لوحة وموضوعٍ جلل وعملٍ طويل النَفَس وعبقريةِ كيمياء لونيّة — لم يُحجم أبرزُهم شخصيةً عن خوضها معركة يتهيّبها من ليس دافيد أو ده لاكروا.

إنهم إذا استمروا يجتازون — تعضدهم ثقافَةٌ وطموح — ذلك الممّر الوعر حيث يتجاذبهم النقيضان: تأهّبٌ لزلزلة كل شيء وولاءٌ لمعايير الكلاسيكيين العِظام، فقد لا ينقضي طويلُ أمد حتى يكون عندنا تحف تقوى على الزمن.

واكبَتْكِ خلجات القلب، يا ريشاتِ لبنان والازاميل.

سر القصص

مقدمة «جبل الآلهة»
لعبدالله حشيمه ١٩٥٩

ـ ١ ـ

أنا حسبي أنني من جَبَلٍ
هو بين الله والأرض كلامْ

هذه القِصّة، يُخيّل إليّ أنها ستُحَبّ كثيراً، وان الحسان سيغفينَ على صفحاتها شارقاتٍ بالدمع متنهدّات.

بعضُ نتاج الأدب المعاصر تخطّى الاطار الذي كان عليه أن يُبقي القصّة في ماهيتها العذبة الشفّافة: تحليلٌ متعمَّل، اغراقٌ في الوصف، تفلسفٌ حول موضوع بعينه، حزّ قلم لاطلاع الشخوص نافرة، الى ما هنالك مما يزجّها

ـــ والحياةَ نفسها التي تصف ! ـــ في أشياء المختبر أكثر منها في أشياء الجمال.

لا، ليس ملايينُ القراء ولا النخبة هم من طبقة المنحرفين.

ولسوف تبقى القصّة عند الفنان الأصيل بعضاً ـــ أو كثيراً ـــ مما كانت عليه يوم خرجت أوّل الدهر الى الناس: موضوعاً ساذجاً ولكن عجباً يبسطه ذو عينين محرورتين لمتحلّقِين حوله طهرتْ قلوبهم فاصغوا يستمعون. ويكون ذلك عَقِبَ بعضٍ مِن رحلة قام بها الى المعمور، أو الى الحياة.

قصّه « جَبَلِ الآلهة » صنُع قلم ذي كرامة.

إنه من تلك الأقلام التي عالجت الحياة بشرف. لا تَصنّعَ مُغرياتِ الجمال ولا استهدف الغِنى الملعون على حساب إرهاق الذوق أو تخديش الحساسية.

عبدالله حشيمه من هنا، من أجمل جبل، عاش طليقاً، يكفيه أن يفتّح عينيه كل صباح على هضبات بِكفيّا

يسرِّحهما من ضهور الشوير الى دارة قيصر الجميل، الى بيت شباب، عندما تروح تلك الارجاء تتنقّل من لون الى لون كأنما الدنيا مقبلة الينا عروسَ ليلة في غلالة من حرير.

وهكذا ظلّت الحياة عنده كفافاً من جمال، ولو بعد أن باعد بعينيه الى الجبل الكسروانيّ الأنيق، بل الى العالمَين اللذين طوفّ بهما عبْرَ البحر والجوّ.

أديبٌ جليلُ البثّ أنيقُه، الاسطورةُ والتاريخ عنده صنعُ الانسان، هذا الغنّيُ في منتهى الغنى، الطريف في حدود الأمنية، فكيف لا يكتفي بأن يمدّ يداً الى خَبيئة من خبايا قلبه، أو لبنانه، فينشل الرائعة التي تُسكر الاصوليّة والغرابة معاً ؟

وانسان من الرعيل الذي كانت الدراسة في عهده إثراءً للأنا لا تضخيماً للمقتنى. فإن واجه القصة، في عهد الطفرة، لم « يسقط في التجارب »، وإنما ظلّ يؤمن بأن في الكلاسيكية مرابعَ لا تَنْفَد، وعلى الأديب العليّ العظيم أن يكتشفها استمراراً.

إنّه صنو فروّخ في التصوير.

قصتّه يأباها إلاّ على الموضوع الذي يواجهه اللبنانيّ حتماً، متى اخلص لنفسه ورفعةِ كيانه وللبطولة التي بها تحّدينا تخطّيَ الوجود الشهم.

إنها المغامرة الأولى نَهَدْنا اليها يوم كنّا لا نزال وحدنا في الملعب، نتنقّل على شفا الوجود بين سماء وأرض، مرّةً بشراً ومراراً آلهة، ولكن دوماً كائناتٍ في غير المعتاد.

الجميل في ميتولوجيتنا أن شخوصَها ليسوا مسوخاً: لا « سيكلوب » عندنا ذا عين واحدة، ولا « ساتير » نصفُه عنز ونصفه انسان. كذلك أبطالنا. يغامرون ولكن دوماً في المُجدي. إنهم يلهون بالموت يقصدونه مختارين ويعودون منه مختارين، وقوّتهُم أنهّم أوّل من تمتم بوحدانية الله. ولكنهم بالوقت نفسه ينون الامبراطوريات، يُنزلون الى الوجود الحرف الذي هو أيضاً زورق، أعجبُ زورق، يُقِلّ الفكرة في بحرَي الزمان والمكان. وعند اللزوم يتخيّلون مع موخوس الصيدونيّ ما هو أعظم: كيفَ يستحيل على المادة إلا أن تكون ذرّات، بضعَ وجودات صغيرة، تدورُ في فراغ ولا أهول.

عبدالله حشيمه، القاصّ المنـ..ـح الجَنان، المتطلّع الى كل ذلك، يتعرّض هنا لادونيس وعشتروت، للغرام — للغرام الأول ! — يتفتّح كما الزهرة في الصبح، بريئاً، محفوفاً بأخطار، معرّضاً لغيرة، جميلاً جميلاً كما لا يزال ويبقى الى الأبد في قلوب الطيّبين الذين لا انفسدوا ولا افسدوا.

ثلاثةٌ وراء شخوصه: أرضُ جبلِنا التي لا أطرف منها إلا هي، وانسانُنا البطل الذي، لوفرة ما عزم على الخطر، تآخى مع الخطر، واستشفافُ ماهيّة الألوهة.

إن عَلمت أن كُلّ ذلك هو ما حاول هذا القلم الرضيّ أن يسطه لعينيك في إطار من أجمل القصص، ما دام مدارُ قصتّه على الغرام الأول، أدركت كيفَ أنه، بلا تَعَمّل، شارف أن يرفع الى عينيك ولو جانباً من الوجود.

بلى، عِمِلَ هو وسعَهُ لتمضيَ أنت حتّى الظفر.

وعندئذ تتبيّن أن البساطة (هذه الصعبةُ حتى الاستحالة !) كانت منذُ الاغارقة وستبقى آخرَ كلمة في فضْحِ أسرار الجمال.

مقدمة «المصباح الأزرق»
لنبيل خوري ١٩٥٨

ـ ٢ ـ

أوانَ تسلمتُ مسودّة « المصباح الأزرق » كان في حدسي أنني سأقدّم لقصة من نار ـــ امتهان انسان، وحشيش، وجسد.

كنتُ أتوقعّها نقيضاً لكل ما قرأت. بطلُها حاملُ فأس يقطّع بها من شَرَفه، ثمّ معولٍ به يحفر ليواري هذه الرّمة التي هي هو والتي ضنّ عليها الموت بالموت.

ولكنني لم أكن أنتظر أن أُحبّ هذا البطل.

وأحبّ معه أيضاً مَن اسميّهم لوازمه في عملية التقطيع والدفن: رفيقَ سوء علاّمةً فهّامةً بالشر، لم يبق على « فنّ » الا لقّنَه صديقه، وتصرّف من علُ كأنه يُمنّن، وفتاةَ ليلة شفّافةَ عمر متدرّجةً في تقديم اللذة على طبق، ثم عشيقةً حسناءَ حِسان من الطبقات العُلى تنتقم من العصر بشخص زوجها المنشغل عنها بالعصر، ثم حسودةً ما تَنشد الشهوة بقدر ما تَنشد ايهامَ الناس بأنها، هي أيضاً، مشتهاة، وعلماءَ مخدرات، وجهابذة تهريب وغدر وعمل ليل. بلى كُلّ هؤلاء لم أشحْ بنظري عنهم وانما انعَطفت اليهم، وكدت، من خلل الستار الابجدي، أمدّ اليهم يداً.

يبدو أن نبيل خوري، هذا الخلاّق الخلاق، هو صارمٌ مع نفسه كإنسان: ابطالُه قَصّبهم من مقلع القلب. بَشَرٌ هم لا دُمى. تراه أراد أن يقول جديداً في فن القصة ؟ مثلاً: لا يجوز وضْعُ حجر — وقل: شخص — في بيت من بيوت اللعبة إلا إذا كان يُحَبّ ولو لشرِّه ؟...

القصة فنٌ رحب. وحدها أبتْ أن يوضع لها أصول. كالحياة هي. هل تُفرَغُ الحياة في صيغة ؟ هل يجري عليها مسطَرةٌ وبركار ؟ هناك القصة الساذجة تلك التي كان بها

بدءُ النوع. تحكي لِتلَذّ: « دفني وكلوه »، مثلاً، عند الاغارقة. وهناك التي على الحبّ. الحب الذي بدون زوائد. قوة تحيي وتميت، كما في « بول وفرجيني ».
وهناك قصة القرنين الاخيرين، منذ دوستويفسكي وفلوبير. يعمل الأوّل مبضعه في المواقف يفسّخها، ثم يفسّخ المفسّخات، حتى لكأنّ مخّ المرء ــ أو قلبه إن شئت ــ منتزعٌ من جمجمته، ومارِدٌ أمامه يفكّكه ويركبّه من جديد. فلا تخرج أنت من تلك المشاهد إلا وقد خُيِّل اليك أن شطراً من الحياة، باعبائها المحطّمة، وتلفتاتها الى دكّ المستحيل، وردّ القدر أو الانمعاس به، انما بات « مَستُوفاً » على رفّ من رفوف محفوظاتك. ويتوقّف الثاني عند قبر ولا كالقبور ــ هاوية الزمن فيها غيّبوا عصراً أو مدنيّة ــ فيقول: « إنهض أيها العصر، ويا مدنيّةُ هبيّ ولو لساعات، وتمشيّ مع قلمي على الورق، فلقد وددتُ لو أُشعر القارئ بأنني ساحر، على صفيره يرتد التاريخ افعواناً يرقص. يَرقص الحبّ، يرقص الحرب، يرقص الامبراطوريات الزائلة، والجوعَ الى غد أعظم، والزمنَ يتدافع ويُنقذ من سأم. وهناك القصّة العصرية ــ مع همنغواي مثلاً ــ فهي تلعب، أحياناً، بين شيخٍ معاند ·وحوتِ بحرٍ لا يكلّ، فتخطّ الحياة جميعاً: نضالهَا، ومشارفةَ التلذذ بالظفر،

وحتميّةَ الموت بغية القول أن الظفر لا يُشترى إلاّ بالموت.

ولكنك من ابولونيوس الفينيقيِ الى موم الانكليزي ـــ إذا استثنيت قلائل من مثل شاتوبريان وغوته وفلوبير ـــ تجد القصّة تحديّاً للأناقة ـــ أناقة البثّ خصوصاً. أما هي البحر؟ وهل لأواذيّ البحر، وتدافعها المخيف، ثم تحطّمها، أُصولٌ ومذاهب؟

القاعدة هنا هي القوّة. إنزال الشعور بأن المؤلف أحَدُ أهرامات مصر، عبثاً «تشقع» نفسك، مثله، قبل انقضاء مئات السنين. أما أن يجتمع اثنان معاً: الشعورُ بالجبروت والانسحارُ بالأناقة، كما أمام بعلبك، فنادراً نادراً ما يتحقق ذلك في عالمِ القصة. بلى، القصة أكثر من بحر، انها الجحيم: فوضى ونار. لهذا تراها لا تستريح في الهدوء. النار شرطٌ فيها ولو هي وَصَفَتِ السماء. قصدتُ الى القول أن التحفة التي ستَجمع القصة الى الشعر في تأليف أخّاذ لم تزل في التَوق.

في الشرق، أينَ نحن من القصة؟

البدائية التي تقص لتلذّ، ثم التي على الحّب البالغ من

قوته حدّ التدلّه بالموت ؟ انهما في المنتظر. والتي تحلل حتى لَتُسلِّمكَ خيطَ الحياة ؟ إنها لم تولد. والتي تنفض الكفَن عن حضارة ؟ انها بدأت مع زيدان ولكنها كانت فقيرةَ كلّ شيء. أما الآخذة بمبدأ « الفوضى الجميلة »، وقل باهواء الحياة العصرية، فقد نهضت على قدمين. متى تصل ؟ لا عليك. كل ما لك أن تعلم أنها مشت.

نموذج منها ذو حزّات قوّيات، طُرفةُ نبيل خوري: « المصباح الأزرق ».

لأوّل مرة أنت أمام يدين عملاقيتين تُقَطعّان الحجارة من منجم بعينه: حياةِ التشرّد.

القصّةُ عند نبيل خوري ؟ أنها العشيقة. يحيا لها، يتنفّس بأنفاسها، يساهرها الليل، يسقيها الخمر حتى تسكر وترقص.. (وكدت أقول يضاجعها !) ويموت يوم تموت.

هذا ما اعانه قليلاً، فجعله يستعيض عما أعوز النتاج الذي حوله ليكون تُراثاً يستند اليه. القصّة، ككل فنّ،

ككلّ حسن معلّبٍ في مأثورة، ليست من لا شيء. انها مما هي بذاتها ومما كان قبلها. قبل نبيل خوري، عندنا من القصة ماذا ؟ أشياءُ، أشياءُ طيّبة، ولكنها ضحضاحة، لا يصحّ أن تُمَدّ اليها الاظفار بغية التعلّق والتسلق.

عِشْقُ نبيل خوري للقصّة، طَرْقُه العنيف على بابهَا، توحّده بها، حُلمهُ إياها، اعتزامُه قولبةَ غدِها، كل ذلك جعلها تطيعه كأمة، وكأميرة أحلام.

تحدّيت نفسي أن أقوم عن « المصباح الأزرق » قبل أن أُتمّه. كان يُعذّبني. كان كالنحلة أطردها فتعود اليّ. أقول له: « أنت هنا لا تُعجبني، وهُناك تحطّم من ثقتي بالانسان، آنا تقوّل القدر أكثر مما يقول، وآونةً تجعل الليل يأخذ على النهار طريقه ويقفز على دَوْرة الشمس كأنها دُمية. ولكنك، ولو فيما تغمّني وتضايقني، تظَلُّ تشدّني اليك، الى بطلك الشقيّ، الى أبطالك الثانويين — وهل تراهم ثانويين أو أقلّ شقاء ؟ ».

من القَصّاص يملك نبيل خوري هذا العنصر الأساسي الشهم الذي من أجله كانت القصّة. وهو أنها تُقرأ. لماذا

تُقرأ ؟ لذاتها. فيما بعد، بعد مولِدها بزمن طويل، طُلب الى القصّة أن تحلِلّ نفسيّات، أن تبنيَ أمماً، أن تَدلّ على غد أروع، أن تقول وَحْدَةَ التناقض وفضّ اختام الغيب.

في البدء كانت القصّة لتكون. ليحسّ القارئ انه منقاد الى قراءتها، انها له كالحبّ، تتملكه، تسرّ في اذنه باغراء: سِرْ.. سر معي.. معَ جنوني.. تشاءُ أو لا تشاء.. وإنما أنا القصّة المرأة.. أنا أنتَ عاشقاً.. أنا المتعة، والسكرة، والعجب.

إذا كان تحديدُ القصّة الحديثة لا يزال يَذكر لها من مولدها هذا العنصرَ الفريد، فيكون نبيل خوري أقوى قصّاص. مشاهدُه حَفْرٌ لا كتابة. ولكن الحَجَر عنده حياةٌ تحيا. بَطَلُه الى الهلاك أم الى رحمة الله ؟ ما ندري. كل ما عندنا انه دائماً في وضعٍ من ترك جنسيّة الأيّاً كان وانقضّ على الحياة كأس لذة تُشرب حتى الثمالة. نِصْفُ الوجود الحديث، الوجود الجسدي المتطلّب حتى التمزّق، على شِقّ هذا القلم. ويبلغُ نبيل خوري ذروةَ الفنّ، ذروةٌ تجعله نسيجاً على حدة، عندما يبرقع الموقف العنيف برمزية تقول الشهوة، والاضلاعَ المتلوية، وقهقهةَ العهر،

وكأنها لا قالت ولا خدّشت ذوقاً. (وهو ليس دائماً هكذا). أشخاصه، أشخاصه جميعاً مقامرو حياة، بينهم وبين الجحيم وشائج. إلا أنهم من هنا، من يومنا، وقعنا عليهم الساعة، أو أستدفأوا الليلة في فراشنا، يوم عرّاهم نبيل خوري عرّى الحياة العصرية.

ان البطولة الخُلُقية ليست من الطبيعة. إنها غرسةٌ نادرة، لا نعرف كيف تنبت ولا أين. « المصباح الأزرق » كتابُ الشباب، شباب اليوم، دقّ على بابه العصر، وهتف به: تبقى تافهاً أو تتلوّث بي.

ونبيلُ خوري، يستشرف أيضاً، في « المصباح الأزرق » بالذات، أن يقول الشرّ ليبعد الناس عن الشرّ. ولكنه، يفعل دون أن يحطّم الانسان الشرّير. أضاليل « احسان »، بطلِ « المصباح الأزرق »، تكرهها، ولكنك لا تكره « إحساناً ».

نبيل خوري هنا ــ هذا الذي قد يُقيم كتابُه رجالَ الدين ويُقعدهم ــ أقربُ ما يكون الى روح الدين. إنه لا يرجم الخطيئة إلا ليرحم الخاطئ.

وسيرحم الله نبيلَ خوري أيضاً، حباً بنا. ماذا ! أوليس من الصَلاة كذلك أن تزيد حجراً على هيكل الفن ــ نشيد الجمال الذي يوقظ الزهر حول عرش الله ؟ كتابٌ يقرأ، ولو متنفّساً عُهراً وتشرّداً، كتابٌ يلذّ، كتابٌ يَمْسَح الضَجر عن الهنيهات، لا يمكن لا يمكن إلاّ أن يَرحُبَ به صدرُ الله.

للوسيلة حدّ

في اكرام اندره جيد يوم
استضافنا في «مدرسة الآداب
العليا» بيروت، نيسان ١٩٤٦

الآن، والنجمةُ التي نعيش عليها معتكفةٌ تعيد النظر في قيمها، شأنها كُلّ ثلث قرن، إثْرَ طعنة من أهل مذهب لم يتثبتوا منه ـــ يطيب لنا في لبنان، أحدِ أوطان العقل، أن تُثار قَضِيّةُ واحد من أمثال اندره جيد.

تُرى الغيب الاعمى راح ينجاب عن عناية حكيمة التدبير، فإذا في غير الصُدف زيارةُ الموقظ الفكري الأول في أوروبة الحديثة للبنان، البقعةِ الأخرى الطامعة بأن يتوقّف فيها الزمان توقفّه سابقاً في الأتّيك، والجليل، والإيل ده فرانس، حيث خفّف من حدة أعصابه، ومن تناحره على

كل ما ليس ماهيتَه، ومن نِسيان الكلمة التي قد يكون ما طَلعَ على الوجود إلاّ ليقولها ؟

الزمان، على هذا السيّار الصغير، اثنان: فزمان يحياه خاصةً مستكنّو الدخيلة في صراع مع وسَطٍ لا يفهمهم، وبالتالي لا يقدر ما يتطلبون من عزلة عنها، هو يقتتل لشؤون العيش، وتدبّر البقاء اليومي، وهم يطوقونها بتعالِ وشمول وبرودةِ حُكم، إذ غالباً ما يحتاجون الى إدانة انفسهم، وهكذا يعودون وقد وقفوا أكثر على نواميس تتحكم بكينونتها وبمضيّ صوب مطلب، وبمطلب؛ وزمانٌ آخر على النقيض من ذاك، يعيشه القطيعُ البشري جميعاً، فيه تناقضات عَجَب: فكائِنٌ متخطٍ حدودَ الكيان، وآخرُ منكمش لا يحتل من ذاته سوى جزء، وثالثٌ مندلقُ الجوهر من صوب، مدفونُه من صوب آخر، عجيجُ تخبّط ناموسُه أن لا ناموس، يخيل إلى الرائيه من خارج ان لا جدوى منه وانّ على الخاصة تخطيطَ الطريق وقَسْرَه على نهجها قسراً. أما المُعطى بعضَ نفاذ الى الدخيلة فيرى في الضاربين على هواهم مادّةً، صامدة كالشرط، هي مَرْسح الخاصة، يعمل العقل عليها عَمَلَه، ومن بوادرها التِلقائية أو المقصودة تُستخلص النواميس. حتى لكأنّ غنى الاستنتاج

وصحتَه يجيئان على قدر ما تتخطى تلك المادة حدودَها، أو تتهرّب من أخذ مداها، وقل: على قدر ما تهزأ بطبيعة الأشياء.

* * *

وبعد، فتلكم، كما ترون، الشقّة سحيقة الانفراج بين خاصة وعامة، عقلٍ ومادة، راعٍ وقطيع يَرعى.

ولقد كان من الطبيعي أن يُسجّل تاريخُ الفكر قصّة واحد من العامة اغراه الانخراط في سلك الخاصة. حتى إذا تم له ذلك ساوره اليقين بأنه أصلح من أوتوا القدرة على فهم الفئة المنكوبة الكيان.

ولكنْ باطلاً ما يخالج الأمرُ حدسَه: هو هارب من الجماعة، مُتّهَمٌ إذن بالتحيّز عليهم، وبقدرته على تشخيص مرضهم، وعلى وصف الدواء الذي يقيم من موت.

وكان، من جهة أخرى، أن لم تدوِّن قصةُ الفكر قط إطلالة واحد من الخاصة يتنازل عن راعويته ليدخل عامداً في راعوية القطيع. ومن ذا تراه يترك دَوْرَ البنّاء ليغدو

الحجر الذي يعالجه البنّاء ؟ مجدَ الفعالية لينحدر الى درك الانفعال ؟

ليكون أندره جيد كان لا بد من قحة.

الموسر العقلي، ذو الريشة الي تتناول أدق الخواطر فتعيده جسداً نابضَ الحرارة، الروّاد كلّ مجاهل القيم، الرهيفُ الحِسّ لِفوارقَ بين عواصفِ الكيان ولطافات نياسمه، المجرّد الكُليّ القدرة، ها هو يتحول الى محسوس منه يجردون. المفكر أصبح لنفسه موضوعاً، وللناس. الطبيب أمرض شخصه عامداً، لتكون العلاقات حميمة — كالتوحّد — بين طبيب ومطبَّب وتطبيب، وليُبْلَغَ بالعلم حَدّ المطلق.

* * *

إنه ليأبى عليهم الانتهاءَ الى المعرفة، أُولئك الذين الم يشرطوا على الحبة أن تموت، وعلى الغذاء أن يغدو رضياً.

أوليس من مغزى لأن يحبّ هذا « الجهنميّ » « كتابَ السماء » فوق كل كتاب ؟

إنها علاقة القلة باللامتناهي، علاقةُ هذا الأبلون الصائر الى ديونيسيوس، بالإله الصائر الى بشر.

ولكنها على كل علاقة.

* * *

ويا جيد العظيم، إن القلم اللبناني الذي يتطلع الآن الى استجلائك إنما وقف نهائياً في الجانب المناقض لجانبك..

ولكنه، فيما هو وطيد الايمان بأن في إمكان الخليقة بلوغ المعرفة باتباع النهج الذي اختطته أوطان العقل ــ ولبنان يعتزم أن يكون واحداً منها ــ ذلك النهج الذي لا يؤمن أهله بأن الزيغ هو الطريقة الى استكناه الزيغ، فإنه ليعترف لك، كذلك، بأنك أوجدت نهجاً آخر لربما كان للعقل أن يقف عنده. وهو، فيما سيروح يحكم له أو عليه، سيغنى ويتهيّب.

الشعر بطولة الحياة

مقدمة «سأم» لصلاح لبكي

تشرين الثاني ١٩٤٨

في مؤملي الذي يكاد يتقادم عهداً أن أقول في صلاح لبكي بعضَ العجب. فأيّةُ شيمةٍ من شيم هذه الريشة الحُلوة لا تهيب بي الى كتابة طُرفة، سواءً داعبتِ الشِعر أو قصّت القَصص اللبناني أو زأرت تحمي الجبل؟

تُرى هي واحدة أحلامي، تراودني في سويعات من العمر نوادر، بِمشيقِ قدّ ومحرور جسد ونقل خطىً في البال هُنّ أطيب من نغم القصب؟

ولكنْ هل يُفسَح لي أن أطيبَ قدْرَ ما أشاء ويعدِلَ المقدورُ مرجّواً؟

لأن تحيا نتاجَ هذا الشاعر عَطِيّة. ولأن تُوفّقَ الى التكلّم علي طربك لبثّه الحنون، تَمرّسْ بتذوق البساطة. والبساطةُ إلهةٌ عبادتُها وجَعٌ وجزع..

لتقول ماهيةَ هذا الشعر عليكَ أن تُطلع الى العالم الأبجديّ واحدةَ القلم في زِنة القيم اللطاف، وإضاءةِ ما لم يُفضح، ومَسّ ِ الحُسْنِ بابهام وسبّابة.

ولأنّ شعرَ صلاح لبكي حُبِل به في سكون، تروحُ تتساءل: كيفُ لا يُحبس القول فيه كأنما المتحدِّثُ عنه، ذاك الذي تعوّد إسكار الناس، سئم عمله فقال: هذه المرة سأسكر أنا..

قصيدةُ صلاح ما صيغت صوغاً فتلاحقَها مستنطقاً تأخذ عنها كيف رَصْفُ المداميك بصرامة. ولكنّها نمت كالبنفسج والبيلسان. فهُنا خواطِرُ لم تعالَجْ، واحدة تلو أخرى، بازميل، ثم تُرَكّبُ موقّتاً في مكانها من البناء، تُقيّمُ كجزءِ من كُلّ، ثم تُنتزَع ليعاد النظرُ فيها، ولا تُرْكَز نهائياً الا بعد أن تقوّل الأُفُقَ المنحني عليها في ذهول: « لَلْجمال بدونها غيرُ جمال.. ».

لا، فالكُلّ، في هذا الشِعر، كان ـــ كما لو امكن ـــ جُمْلةً، يا صاح. حتى لكأن القصيدةَ اللبكية كالحُب الكبير، تَشعر أنك تجدّف على قدسها حين تزعُم أنه بُنِيَ تِباعاً من ضمّةٍ حرّى سنحت تحت ياسمينة، فمِن قُبلةٍ خطفت عند مقعد، فمن تلهّف في وَحدة آنستها الذكريات. أما الحب الذي يمتّ الى شعر صلاح، فهو حبك العظيم الذي كان لك قبل أن تكون، والذي جاءت الأرض الى الوجود من أجله، تفرش سندسَها لك ولحبيبتك مكانَ موعد.

ولأنّ صلاح لبكي شاعرٌ في كلّ شيء، لا استجيز لنفسي أن أحدثّك عنه كأنسان. فالناثر فيه يَضرب أبداً في مقلع الحسن، والسياسيُّ يأبى الا ان يَتَدّخل في إقصاء البشاعة. فاذا كُلّ إرادة من إراداته **قصيدة**.

هدف صلاح وسَعْيه، (حتى وَسْطَ الجيل المكيافيليّ الباطنيّ الذي يعايش)، كلاهما من مَعدَن الخُلُق والصراحة والانخراط. ولكان ابن نعوم اللبكي ـــ صقر القضية اللبنانية في عهده ـــ أقربَ الناس الى دخول الحُكم لو عرف المداجاةَ قُلامةَ ظِفر، ولو نام يوماً على أفكاره حِيال مساس

بحقوق بلاده، نومتَه أحياناً على الطوى من أجل لبنان ومن أجل كرامته. وهكذا يؤذي الشاعِرُ فيه رجلَ السياسة أذىً لا أحبّ ولا أنبل. وكأنني به واحدُ جماعة أبى معدنهم أن يجيئوا دست الحكم الا راغمين روح الشر، لا بواسطة مماشاتِه أو الزُلفى في العتبات.

لقد أغنى بلادَنا كثيراً هذا الفتى الأسمر.

زادَ شِعْرُهُ كرَّ العنادل في الجبل، فالضوء المجلب منعطفاتِنا أصبح بعدَه أنعم وأكثرَ مِخمليّة، والظلالُ المنطرحة على السهل غَدَتْ أطرى وأندى.

أيّ غزّارة لا تودّ بعده أن تُشَقّ لمعاندة الأمرِ الواقع ؟ أيّ إعصار تجّرأ قبله على الجهر في وجه الدَوحة الهرمة: « سأحطّمكِ وإن سقطتِ علي » ؟ أي ديَمةٍ كانت في سوى لفتاته ديمة أو كانت لتهمي لو لم تومئ يداه ؟

وله نَبرةٌ عليّة وحنون معاً، تردّ الحُسْن أحسن. فالأشياء بعد ان يعالجها قلمه أكثرُ من أشياء. صديقٌ لمعظمها هو ورفيقٌ حياة وخدينُ كأس، صحبها منذ هدوء التلّة ـــ

تلك التي هي، في غير لبنان، ترابٌ وحجر ـــ الى قَلَق الغصن تحت البلبل، الى عَصْفِ الشوق في الصدور، الشوقِ الذي لا اسم له في غير لغتنا..

حتى اذا توغّل بعضَ التوغل في جهاده هذا المخلصُ، الابيّ، الكبير، الطموح، المتوحّدُ مع قضية بلاده، الشجاع، القاطع كالسيف، المتواضع المضحّي بذاته أحياناً تنحّياً لرفيقِ نضال، العنيدُ في المُضيّ الى الحق، السمحُ الضربة، البحرُ العطاء، والشاعرُ أبداً، ذو القلب الطفل، المستعِدّ للوئام اذا ثبت له صحّةُ العكس ـــ فإنما يُدرك الناس أيّ ارث من دربة القتال، واستئنافِ مدرسة في المروءة، ودكِ الأنبياء الكَذَبة، والذودِ عن حياض الأقداس، وخدمةِ الحقّ لوجه الحق، يمكنهم أن يجمعوا من وراء القصبة التي براها هذا الفتى في مستوى خُلقِه وحسّه، فاذا هو وبالٌ على ذاتِ يده وصحّتِه، ونعمةٌ على لِهاف المتتلمذين للحقّ والجمال.

واحدةٌ من ألف إعلانُهن خيانَةٌ لشيمتهن الحيية: يوم راح الاستقلال ـــ وهو صفحةُ نور خطّها لبنان المعاصر ـــ يبهر نفراً من الذين اتفّقَ ان كانوا بين أبطاله، فلم

يفهموا حماسة الشعب لهم الا فرصةً سانحة للتعهر في المغنم، فاستثمروا وانتقموا ونكّلوا بالخصم، عندئذ افتتح ابن اللبكيّ، وحدَه، وَسْطَ ذلك الجوّ الارهابي، حملةَ تحطيم الأوثان وتنويرِ الرأي والتفريق بين عصمة الاستقلال وذلّ الاستغلال.

وكما ان صلاحاً السياسي أخٌ للقيم، فصلاحٌ الشاعر أخٌ للطيب والليل والربوة وهدير الموج: تعلّمنا بعده كيف نشم حفنةً من أرضنا فنتعبدّ لها، وكيف نُبصر تُلْماً في البحر وراء شراع فنقوم الى مُلْكٍ بنيناه، هناك، في نهايات الأرض وسيعاً سعةَ الطموح في الصدور.

يتغنّى صلاح فيحرّك في القلب دفئاً. وهو كأنما يقول لا ينظم.

وكيف — الا اذا قَسرتَ المستحيلَ على طاعتك — يمكن التأليفُ بين أناقة وسذاجة، بين الدعوةِ الى أقصى المطالب والترصّن في القول ترصّنَ البنفسج في كبّ *الشذا* ؟

أيّ يدّ كانت لصلاح على الجمال ـــ والجمالُ اقنوم من ثالوثِ العقل، علّةِ وجود الجبل ـــ حين لعبنا اللعبة الكبرى في ادخال الشعر الى دارة ومدينة، بعد أن كان في الصحراء يجري وراء الأظعان أو في مضارب الوبَر.

هو من عندنا هذا الشاعر، وادبُه من عندنا.

قصيدتُه بناية، واقصوصَتُه، والمقالة.

يقولون لك: ان له مجموعةً نثريةً والف دراسة على الخاطرة السياسية العارضة. فلا تصدق، ريشته توهمك أنها تنثر في حين أن قصصه والمقالات قصائدُ ذاتُ أوزان أرحب ورويّ خفيّ.

ومن « أرجوحة القمر » الى « اعماق الجبل »، مرّاً بـ « مواعيد » وعشراتِ العشرات من العجالات التي تكوّن كُلّ صباح غذاء اللبنانيين السياسي، فتتصدّر أقوى صحفنا واصرحها ولا تتشرّف بتوقيعه، حتى ليَصحّ أن يقال: « ان صلاح لبكيّ هو جنديّ السياسة المجهول »، الى تحفته « سَأَم » *التي بين يَديك. وهي آيةُ الشعر يوم الكلامُ على مفزَعةِ*

الانسان من الحياة الى التكّبر على الحياة، في إطار من ربيع الطبيعة ومن الحُبّ ومن التمرّس بالبرء من عدم ــ انما تمتَد سلسلةُ نتاج خيّر ما عرف لبنان أقرب منه الى قلبه، يؤلف بينها ما يؤلّف بين دعوة الكروان صباحاً على صنوبرة في بعبدات، وصمودِ صور، مدينةِ البطولة غير منازعة، للغُزاة الذين تهزأ بهم اليوم أمواجُها المُغنيّة على الدهر، والخاطِرة التي يُولج اليها فتتّسع بقدر الولوج حتى لتبوح المادةُ والكون والحياة بسرها وأبَدِ مداها في بنت شفة تُكتنه.

يجيءُ يومٌ يُحَبّ فيه صلاح لبكي كثيراً.

الحلم والقدر

مقدمة «ميناء القدر» لفكتور
حكيم، كانون الثاني ١٩٥٦

كلامٌ على القدر، لغزِ الشرق الأبديّ (وحيث للحب بالذات فصل ولا أبهى)، كيف يمكن تصوّرهُ الا في إطار من قِبالة البحر، ذي النداء السِحريّ الذي يَشيل معاً بقلبك وبكرة الأرض ؟

ترى، إذن، لروعته البحرية، المُطلسَمة بالقَدر، كان موضوعُ السندباد أجمَلَ ما صدّر العرب الى العالم ؟

لقد طالما أُخِذتُ بطائفة من قيمهم الخيّرة البارعة كحِدّة التقدمية في بوادَر لِعُمَر يمكن الائتمامُ بها في

إحداث نهضة لا يقف بوجهها حتى المعتَقَد، أو كلمة للمأمون تفجّرُ كُلّ ارسطو: « نظرتُ فلم أجد أجملَ من النظر في عقول الناس ». أو ــ على الأخص ــ حِكَمٍ لعليّ تحفزك على التساؤل: كيفَ يسع غزّارةً بريت في القرن السابع ان تبلغ هذا المبلغ من تفتيق سِرّ الحياة في خاطرةٍ انيقة كالشمس ؟

إلا أنه، برغم من سُطُوِّ هذه الفرائد على ذهن المنقّب عن كنوزهم، يظَلّ للخيال الطريف الذي أطلع حكاياتِ السندباد نَكْهَةٌ خاصة بين جميع أطايب المَقْدُرات.

تلك الحكايات ؟ لسوف يُهرَق في تَعَمّهقا واللهو حولها حِبْرٌ كثير.

هذا فكتور حكيم، ذو الريشة التي تُضارع الأزميل الفلورنسيّ، في لُغة باريس، إحدى وسائلنا الى الجمهور الكوني، يفتتح اليوم بلغة العَرَب ــ وقد افتُتِنَ بها حديثاً ــ كلاماً ولا اعمق على موضوع المواضيع في الشرق.

مِن مرفأ يشرِّفه بأن يدعوه بيروت، أطلق ــ على

بركاتِ الريح ــ سفينةَ السندباد، بطلِ القلق الذي لا يهدأ. ثم أطلقها كَرّة أخرى. وهكذا وهكذا حتى لتَمُرّ الحياة كلّها متسلسلةً في مغامرة السائح العجب.

تُرى سندباده هو العقل البشري ــ جميعاً بما فيه القلب ــ والبحر هو الأزل ؟

يا للأسئلة الأنيقة تأخذ في الالتماعِ لك، كلما أوغلتَ في مرافقة هذا الجازون الفكريّ. مرهفةٌ هي. كأنها تماثيل من رخام، تكاد ــ لوفرة ما افتُنّ في نحتها ــ تهوي من افاريز البرتنون على العقل. وتغدو أحياناً تُفاحةً تقدّمها لك ــ وقد عصفَ عاصفُ الريح بالبحر جميعاً ــ يدٌ لحواء خرجت من اللجّة تقول: الجنّة ؟ كذب. ما كانت الجنة في عَدْن. انها وستبقى في البحر.

هنا مسّ فكتور حكيم أطرفَ وَتَر وأغناه. بل قَبَض على الغِنى نفسه أو أجاعَهُ اليه. قَبْلَه كان العزف كُلّه على هذه الخيطان الدقيقة التي ترتجف على العود. فرفعه الى المستويات العُلى. واذا هو يندفق الى الأذن، والحَلْق،

وغصَص ِ الصدر، من الحِبال المشدودة على مركبٍ عتيّ يغالب الإعصار وجبال الموج.

رحلة أغنية. كبرى كالحياة !! اذ السفينة ــ العود متنقلةٌ لا تستقر على اصابع ِ الوجود المهيب. أوتراها ستقف في ميناء ؟ انها إن فعلتْ أُصبتَ بِدُوار، وخلتَ الميناء ستنقَلِعُ جملةً من على صخرتها الأزلية، ترمي بنفسها في ذلك المركب، رفيقةً لك ولاحلامك المذهّبةِ الكبار، جاعلة منك مخلوقاً مُترفَ الوجود: مرّةً مزيجاً من شيطان وملاك، صلصال ٍ وخاطرة، ومّرةً لفظةً في كتاب، يعمل بها المؤلف ما يشاء، ولكن في كلا الحالين إنساناً يلهو بتفكيك أهوائه، وتدميرها، ثم صبّها من جديد وتركيبها في المكان الأخلق، حتى لَيَصْنَعُ نفسَه برمتها أُخرى المقدرات، أُخرى البهاء.

هذا الموضوع ؟! انه ولا أجرأ. اعنف من إعمال ِ الظِفْر في الحجر. يَخطّ الكلمةَ الباقية: الانسانُ لا يكون الا أوان يُجازف. يُجازف بوجوده وبلا وجوده، يجازف حتى بحبه العظيم.

ماذا ! أيكون الله قد بدأ الكون هنيهَة قال: سأخرج مما أنا. أصنع، من شغفي بالقوة، ما لا يكتنهه مَن أصنعهم. وتكون لذّتي في إبقاء اللغز ــ لغز الوجود ــ وقفاً عليّ، مباعداً بماهية عنصرهم، مباعداً حتى ليظنون انهم، عليّ أنا، لغز ؟ وتبدأ رحلتهم فيه، رحلتهم.. اليهم، وبهذا، لربما، اليّ ؟

دَوماً مَقلَع آخر

في حفلة « مدرسة الآداب العليا » إحتفاء بالذكرى المئوية لمولد آرثور رامبو، كانون الأول ١٩٥٤

أرثور رامبو ! نَقْشُ وجهه في الزمن ! حدّه باسطر على الورق ! إفراغه في خطاب ! مَن مِن عباقرة القلم، مَن يجرؤ على التحرش بهذا المخلوق العجب، ولا يتعرّض لأن يترُك، هنا وهناك، قطَعاً متطايرة من جسده وآرائه وربما من دينه ؟! وآيةُ هذا الولد المستبق كلّ عصر، كلّ هداية، انه يجعل للعقل أيضاً موادّه الملتهبة.

لربما للمرّة الأولى، في التاريخ، يسيطر طفلٌ على منجم المعرفة.

ان « فصله في الجحيم »، موضوعَ إلمامتنا الليلة، بعد

انقضاء نحوٍ من قرن، على إلهاب الخواطر، يبقى الكتاب الفريد، الكتاب الذي لم تَرشقِ السماء بمثله حجارة.

إن الكون الرهيب الصمت، ذاك اللغزَ الأبديّ الذي يرجّ في البال، فيبعث القشعريرة في عصب الخيال ـــ إذا كان للخيال اعصاب ! ـــ نادراً ما انفتح بابُه للطائعين. وفي الانجيل ان ملكوتَ الله يُغتصب اغتصاباً، والمخلِّصُ نفسه، يقول قانونُ الايمان، لا ينفض الكَفن قبل ان يعرّج على الجحيم.

لأن يلبَثَ غوته، ستّين عاماً، يحاور مفستو، يَقصد السَحَرة يلحُ عليهم أكواخَهم القذرة بعينين محرورتين تَسْتَطْلِعان سرّ اللماذا، اللماذا الكبرى، سِرَّ سيرها على هذا السراط المعمّى دون سواه، لهو أمر قد نجدُه طبيعِيّاً في انسان تسنّى له أن « يؤغرق بربريته »، مدّة نحو من قرن، ومدّة نحو من قرن يستطلع أبد الهنيهة، يُقصّب أشياء الجمال، يُقولب منها، يدمّر اللاشيء ويَخلق. اما أن يُطالعنا كتابُ الفكر بفتيً يافع في حوالي الخامس عشر من نيساناته يرئس حَفْلَ الخطأة، الخطأةِ الكبار، طارحي السؤالِ الاعظم، أولئك الذين يطلبون الجوابَ على حساب جِلْدهم، ويكون من التألّق بينهم حتى ليُغرق

عقاربهم بُسمّه وقحتَهم بدنَسِه، وتطلعاتهم الى البعيد بإشارة جفن تتخطى المنتهى، فأَمرٌ يكاد يُبدّل كتابَ الفكر آخر، ويجعل أُولي الشرّ من الباحثين أوفرَ حظاً بقول الجديد وأشدّ سلطاناً.

ما بالي استمرّ في اثارة الشكوك ؟ أخلع الاعتقاد باني أؤلّه الفضيحة ؟!

كل ما اردتُ اليه هو وضعُ الاصابع على التناقض بين القول بضلال هذا المتشرّد وتسجيله يداً أُولى على الحقّ.

لا ليس « الفصل في الجحيم » صنعَ شاعرٍ رجيم، يمكن عملةَ العقل، دون أيّ خسارة، ان يُشيحوا عنه البصر فيما هم يبنون عمارَةَ المعرفة. لا وهذا الكتاب الصغيرُ قد غدا مِحَكّ كُلّ سِراط أُريد الى بلوغ البهيّ، أُريد الى مزْق الستار عن الشمس الكبرى.

لا يمرّ بـ « فصل في الجحيم » كليلُ العقل، مهيض جناحي الخيال، مَن بَحرُه قَحْف الصَدَفة، مَن ميدانُه ما بين مَلعقَةٍ وجَيْب، مَن طموحُه من الدنيا طيّ عاهرة على زند،

أما العقل أخو الغَضْبة، ذاك الذي يأبى الا خضّ الوجود، عجمَ ما وراء الوجود، قَضم عظام الجمجمة التي تَحجُب ما لا يُحجب، أما العقل أخو اللفتة الوقاحة، ذاك الذي يرفض أُصولاً جاهزة بات خوارها يجاور العُقْم، ونارُها المطفأة تُحاكي الفراغ، فلا بد له ـــ مهمّا شدته اليها اليقينية، واركنه الى رواهنه العِلم ـــ من التتلمذ على هذا الطفل اللاهي، لا بالنار بل بفلسفة مَن أوجد وأهلك بالنار.

« الفصل في الجحيم » ارفعُ مأساة كُتبت لعصور العلم. انها مأساةُ العقل. انها إعادة النظر شُجاعاً في جميع ما سُئل، ووُثق به، وافترض، وجُرّب وتُخطّي، وأُحِبّ، ومِيتَ وحُيِيَ من أجله، وظُفر به، وضُمّ الى صدر حتى عُصِر، ومعه عُصر صاحبه ليعود يتطلّع الى ضَمّة أَحَرّ وأجدّ. انه محاولةُ تجّرؤ على الخالق يطلب فيها العقلُ، بدالّة الإبن، مزيداً مما أُعطي من أُلوهة. تجرّؤٌ بلغت به دالّة الإبن حدّ تهديد الله.

أيّ ثقة إذن به تعالى الى جَنْب المَطمع بمعرفة لا تحدّ ! أيّ صَلاة وراءَ التجديف ! أيّ فصل في السماء « وراء » الفصل في الجحيم !!

لماذا كان رامبو، عن قرب أو بعد، وراء مدارسِ الأدب الحديثة جميعاً ؟!

السؤال هكذا لم يَعُدْ يُطرح. سؤال اليوم: الى ايّ حَدٍ سيُخصب رامبو في « فصله في الجحيم »، خاصةً، جميعَ الفلسفات ؟ مناهج التنقيب ؟ تخطياتِ الأديان ذاتِها بذاتها جَرْياً على سننها القائل بضرورة تفجير الإيمان أوفر كُلّما اتّضح العقلُ لنفسه أكثر ؟

الجميل ان هذا الديوان الجهنميّ الأسطر، الإلهي الآلاء على مصائر المعرفة، انما أُعطي ان يَكتبه ولد. وهكذا باتت قراءتُه خُبزَ الصغار وإلهامَ عِظام العقول: أُولئك لنضارة بثّه وهؤلاء لما يُغنيهم من جرأته، والجميعُ لصدقه.

ورأي رامبو برمبو ؟

هناك مُتعصّبون له يقولون انه ادرك، وهو بعد في التاسعة عشرة، انه لم يبق لأحد ان يقول أكثر.. فسكت.

شِعْرُ الحُبّ

مقدمة « بوح » ديوان أدفيك
شيبوب. بيروت، تموز ١٩٥٤

شعرُ الحب ! يكاد يكون وحدَه الشعر.
تُرى، اما آن اوانُ الجهر بذلك ؟

هذه الطفرة في الفن، وأعنَفُ ما بدأت في التصوير، مهدّدةً بأن تعصِف بأصول الجمال، يخيّل اليّ أنّ مردّها الى اختلال في القدرة على الحب. الحبِ الساذج العظيم.

ــ القدرة، يعترض معترض، القدرة على الحب ؟! أفيكون الحبّ موهبة ؟

كلّ شيء يؤكد ذلك.

أوَما قيل: «يَندر الحبّ العظيم ندورَ العبقرية»؟ والنَهضات انما يلازمها يقظةٌ في عالم القلوب.

كلما كان روميو وجوليت كانت، كما من الغيب، صفحةٌ بيضاء تتهيأ فيها الزلزلة. ويلتقي العاشقان، فقصاصةُ الورق سماءٌ مكوكبة.

ويلُ شعرٍ، ويل فنٍ ليس غزلاً.
وكدت أقول: ويلُ عِلم.

هذا الانسان ما ترى كان لو لم يَشُكّ نفسه بين النجوم علامةَ استفهام: ما نحن بعضُنا من بعض، ايها الكون؟ ولَكان الاستفهام باطلاً، لا ردَّ عليه لو لم يكن مفعماً بحب. انعطف الكون على النفس، ومنحها ذاته في بَوْح، وتفتّحت زنابقُ في العقل الجديب، لأن السؤال تاقَ الى ضمّة.

* * *

من حُسْن الطالع أن في هذا الوجود إلهاً، وديمومةً بعد الموت، وما يلازمُ ذلك من نشوةِ رؤيا فوق الوصف. وإلا كانت الهنيهاتُ الهاربة التي تخطفها ــ وصدرُك الى صدر حبيبتك ــ هي وحدَها ذروةَ الهناء.

حتى لذّتك بأن تعرف، بل بأن تبلغ من المعرفة حدّ القدرةِ على الخَلق، مما به وحده تداني ماهيةَ الألوهة، لا توازي لذّةَ الدوّار الذي يُصيبك، آونةَ تضيع في قبلة.

الحياة بهيةٌ، تقول، الحياة فوق ما اؤمّلُ من الحياة، ما بقيَ فيها أنني أحب.

لو كنتُ شاعرَ السماء، تقول، وأُعطيتُ ان أستَبق مصيري، ودون سواي، اشهد بَرءَ الكون من عدم، حدثَ الاحداث الذي له ارتعش اللاشيء، وبه وحدَه، لأول مرة، وكّدَ، تعالى، انه هو الذي هو، لغنّيتُ العملَ الاعظم بأنه طَعْمُ القبلة.

سوى أني كنت، فيما بعد، عَدّلتُ من مسوّدةِ قولي على انه دون الحقيقة.

مِن وقوع طرْف ٍ على طْرف، ممّا يكوّن الشرارة بين كائنين وُجِدا، كما من البدء، بعضٌ لبعض، حتى شَدّ الأزل الى الأبد على ثغرين يُخمدان باللقاء صرخَة الصمت التي لا يوازيها سوى ارتجاج النجوم، انما يقوم اختصارٌ لا لانِدلاع الكائن في العدم، بل لتشامُخ ذروة الوجود في الوجود. كانما العنايةُ ــ المتناهيةُ الحنوّ على خليقة جاءت وحدها صورةً لها ــ انما راحت، منذ مستهَلّ عهد الخليقة بالمعرفة، تذيقها جرعةً جرعة سلافةَ المقدور الإلهي من الخمرة الموعودة.

لا، ليس الا الحب تجربةٌ كونية. فهو وحده طربُ السُذّج وسكرةُ العباقرة. ولربما به وحده يتساوى المتفاوتون معرفة.

وهو يُفتح على الطفل بمقدار ما يهبُ ليونار. وله الحرارةُ الواحدة عند البريء وعند صاحب مِفستو، والفيضُ اللامتناهي، والسعة التي تجعل العقلين، الطفوليّ والخلاق، يستمتعان الواحدُ كالآخر بالرؤية التي بعدها لا بعد: تقبض على الوجود من طرفيه، وتطويه كمنديل لا احبّ ولا

أبهى. منديلٍ أُمِرّ على عيني الحبيبة فبات هو هو الكون والدهر والفرح.

الانسانُ لا لشيء الا ليعرف.

ومنتهى المعرفة ان يُبدعَ كما من عدم.

فمنْ، يا ترى، من يسَعه الزعمُ ان الساذِجَ، إبّانَ عِشقه، يَقِلّ عن عِلية الأدمغة مقدوراً على العطاء، والخَلق، ومباشرة المستحيل ؟

لعلّ الى هنا مردّ مجلى السرّ في بعض النبوغات المبكّرة. تُرى هؤلاء الصغار كانوا تحت تأثير حبٍ لم يتوقعْه المؤرخون فيسجّلوه أو يتحدّثوا عن اثره ؟ كلُّنا يعرف، إنْ بالاختبار وإن بما حُدّثَ به مشافَهَةً، أنّ طفلاً في الرابع من نَيساناتِهِ أضمرَ لمعلمته عاطفةً لا اسمَ لها، وأنّ عينيه اليها كانتا تحملان صلاة، وهو إنما أخذ عنها الالفباء لأنّ كلّ نطقِ حرفٍ من فمها كان بسمَة خاصة !

دمعةٌ من إمرأة تحمل اليكَ الامرَ بتغيير وجهِ الأرض،

شريطةَ ان يكون في الدمعة حبٌّ أو املٌ بحب. والأملُ بشيء هو الشيء في مطلقه قبل أن تشوبه انتقاصاتُ التحقّق.

والحبُ، كما الارادة التّومائية، عقلٌ. فاذا سُجّل على الحيوان، على عصفورٍ مثلاً يموت لموت عصفورته، كان ذلك لا يَعني دافعَ غريزة. إن للعقل مسوَدّته في الحيوان وفي النبات، وربما في الجماد. تأثُرُ وردة بشحوب اخرى هو نتيجة معرفتها انّ اختها على وشك الذبول. اعرف ان ليس هذا رأيَ البيولوجيين، وانما قد لا يستغربونه يوماً، متى اتسعت ملاحظة الانعطاف بين الخلائق الحيّة على تنوّعها، وبين الذرّات.

ومنذ اليوم يؤكد الفيزيائيون ان المادة في نهاية ما هي ليست مادة. يرجَّح انها لن تُرى ابداً، ولن تُمسّ، ولن تشكّل حاجزاً. ان الفيزياء اكثر من البيولوجيا تقرّب التعريف بالطبيعة من التعريف بالله. روحٌ محضٌ هو، وهي على التُخوم.

لربما قصدتُ من كل هذا ان اؤكّد على أصالة الحب في تكوين الكون.

المعرفة هي الغاية، وليست الا هي. شرطَ بلوغ المعرفة ذروَتها أي قدرتها على فعل الخَلق[١] إذ لذتك من الوجود ان يحاكيَ صنيعُك صنيعَ من أوجَدك. ولكنّ فعلَ الخلق ان تعطيَ وأنت تبني. أيّ وشائجَ إذن تشدّه الى الحب حتى لكأنهما صنوان !؟

لم يبنِ مَنْ لم يحب.

لماذا لم تكن بنايةٌ في الشعر العربي ؟

بلى، أحبَّ العرب. أحبوا بالجسد وأحبوا بالروح. وكانت عندهم، على ما يروُون، قبائلُ باسرها تعشق عِشقَ الروح.

ولكنهم قد يكونون في العاطفة من غير ذوي النَفَس الطويل. ان الفقر الماديّ الذي أوجدَتهم فيه الطبيعة وجّهَ عاطفتهم الى حِسّ الحياة أكثر منه الى الترف العقلي الذي

---

١) ليس الإنسان خلاّقاً أي موجداً من لا شيء. إن هو إلا صانع (ديميرخوس) أي مطلع شيء من أشياء موجودة. وإنما نجري عليه هذا التعبير تشديداً على ضرورة تكاثف فعل الصانع عنده ودنوّه من فعل الخالق.

يدعى الحب. حياة الجسد عندهم لزِم ان تكون فوق حياة العقل. والا ما كانوا بقُوا. أطلعوا البطلَ، لم يطلعوا المحب. كان شعارُهم « العيشُ أولاً ». ولربما هو الأصح في أرض بطبيعتها محرومة. ولكنّ هذا اثّر على نَفَس الحب، اثّر على ابْناء.

أن تكون الصحراءُ صحراءَ شيءٌ موحش حقاً. أما ألا يكون هناك ديوانُ غزل فوَحشةٌ لا تطاق.

وكان على بلاد الانهار، كبغداد ودمشق والقاهرة ولبنان بأسره، ان تردّ التحدّي.

هل فعلت ؟

لكان في مُكنتِها ذلك لو انها — حتى في إبّان انتفاضِها على القديم — لم تَظلّ عينُها في القديم.

امرؤ القيس الصحراوي يسكن كالجنّ كلّ قلمٍ عربي الهوى.

آنَ، أجل، آن لنا ان نتغزَل.

بَدءُ ادبِ الغزل هو بدء البناء.

منذ يوم غير متقادم ـــ عنيتُ اطلالةَ الثلث الثاني من القرن العشرين ـــ بدأ الغزلُ حقاً تحت شقِ القلم العربي. وإني لأتوقعُ له انطلاقة بهية أشبه شيءٍ بأخذ ثأر.

* * *

ادفيك جريديني شيبوب واحدة الخواطر الشهمة في ذهن الغزل. برّت به يوم كانت في البادئين، وبَرّت به أكثر يوم أرادته لفْحاً لا ناراً واناقة لا بذخاً.

هذه الشاعرة الطلقة كربيع من لبنان لم تنتظر ان يدعوَها الغزل. لقد قصدته. من هنا مَسحةُ الطرافة في بَثها البهيّ. كانت المرأة في لبنان موضوعَ وحي. كان القلم النسَوي لِيعُشق لا لِيَعشق. حتى كانت أدفيك.

سوى انها، على النقيض مما يُظنّ، لا تنادي الحبيب. حسبُها ان تقول الخصرَ، والعنقَ العاجيّ، والشوق، والهنيهة الهاربة، حتى تبعثَ الرعشة في الرجل، ويكاد الصخرُ، والهواء، والأفق المتنزّل تتحرك جميعاً اليها.

في هذا العصر الذي طالعتْنا فيه الشاعرات جائعات الى الحبيب، اكتفت هي بأن تكون. فكانت ثورة.

أيّ ثقةٍ بالحسن الأنثوي ؟ أيّ اعادة إيمان بالرجولة ؟ ترى، منذ متى لم يعد يكفي الرجل ان تقول له المرأة حضورَها ليَخِفّ ؟

رسالة الغزل الادفيكي عميقة إذن أكثر مما يُظنّ. إنها قد تُحدث مذهباً.

كان الادب النسويّ يتطلع الى التفرّد في شيء حتى يحصل على حقّه في اللابد. أو يَكون قد حصل عليه بعد ادفيك ؟ من يدري، من يدري ؟

يمكن أن نُنزِل في الواقع ان الغزل عندنا قد غَنِيَ بها. بات له وترٌ غريبُ النقرة. وترٌ من غير هذا العصر، ولكنه متآخِذٌ معه يوماً، كما يتآخذ — إذا أمكن — بنفسجٌ وسنديان.

أوتَنتصر البنفسجة ؟

ان الشيء لا يكون ما لم يكن عجباً.

هذا الإلماعُ المكتفي ــ وهو قوام الجِدّة في إسلوبها ــ هذا الفن القائم على محو الذراعين الممدودتين وعلى خنق الصخَب المتلوّي، لكم يطيب لنا أن يولَدَ في لبنان على يد إمرأة ؟

لن تُطلِع الأمزجةُ أجملَ من الكلاسيكية، ولا أوقعَ، ولا آخذ.

ان الارتجاف الذي يشدّ الحصاة الى النجم هو نغم هادئ، ولأنه هادئ يعمق حتى ليرُجّ في الكيان.

تُرى هذه الشاعرة تغنيّ حبيباً، أبَ طفليها، مات في عمر البطولة، أم حبيباً آخر يمرّ بها لماماً وكأنه طيفٌ أو أمير ابعاد، ركبّته جُزءاً جزءاً من واقعٍ مر وأليم ؟ مَنْ يدري ؟ ومن يجرُؤ ان يَلِج قُدس حَرَمٍ في هذه الشفافية ؟

كل ما نعرف من بوحها، النضر على غنىً، الموجِع

على صفاء طويّة، اللؤلئيّ على توشّحٍ بأغوار مجهول، انّ هناك لطافةَ نفس غير عادية، وشملَ عمرٍ جمّ الآلام والخواطر، وانتدابَ ذات الى عبور الخضّم الصعب، تصهرها جميعاً نبضةُ قلب ابديٍّ الطفولة، يلهو بالنار، يلهو ولا يرعوي. حتى ليخيّل اليك ان قصيدة ادفيك، منذ هي فِلَذٌ قُدّت بتردّد وارادة معاً، الى ان أصبحت اغنية غنوجاً تتسارّ بها الفتياتُ متنهدات، انما هي شيء أجملُ من الحياة لأنها لم تصغ فقط الى صوت الحياة.

في نهضة الغزل غداً ــ تلك التي ستلازم اليقظة الكبرى في بقعة من أجمل بقاع العقل ــ لا بدّ ان تُذكر غزّارةٌ شهمةُ الطرافة بُرِيَتْ على اسمِ نفسها، آيتُها ــ إن جُرِّت ــ أنها حبّ ولا ضرير.

تُرى يموتُ الجَمال ؟

في الذكرى الثالثة لوفاة
سلمى الصايغ، تشرين الثاني
١٩٥٦

حقاً، سلمى صايغ، حقاً هجرتِ الوجود ؟
لسوف اعرف ذلك متى لقيتُ الجمال.

وعذراً إن أنا لم أُصدّق. ومَن، يا سلمانا، يا سلمى الشعراء، من يُصدّق ان رائعة القلب التي انتِ تغيب عن المشاعر، والشَفَقُ المتأخرُ على تلالنا بلبنان يبقى شفقاً، وكرّ العنادل المتماوج على جيف ينابيعنا بالجبل يظلّ كرّا ؟

أكيد ان الموت بات شيئاً لا يُردّ، حتى تركناه يفعل.

انتِ في نعش ؟!
مَن، ذاتَ يوم، من تراه كان يجرؤ على تصورها تقال عنك ؟

كنتِ، ذاتَ عهد، لمستلهمي الشعر، الحُسْنَ الذي بعده لا بعد. وبقي لك شيءٌ من هذا حتى في منتهيات العمر، وإن هو تحوّل من بين ما جبين وخصر الى لهاة وشِقّ قلم.

بلى، جمالك الذي عُبد في المحيا الوسيم هو هو الذي بات كلّ يوم ـــ بعد ان صرتِ جَدّة ـــ يُعبد في صفحات تُضيء وتُرهق طيبا.

تُرى هل تمرّ على الحسان جميعُ أشهر السنة ؟ لربما. ام أشهرك، انت، فاكيد انه لم يكن بينها تشرين أو كانون. كانت جميعاً نيسانات.

لهذا بقي أدبُكِ ينمّ عن نضارة في البثّ، وشباب في المبدأ، ومبزغان شمسٍ في المطلب الصعب. من دَلّ عبارتك المليئة، من افكارك المسلوكة كجواهر العقد، يُستشمّ ان لغيرك اصابع ولكِ انامل، لغيرك وجهاً ولك

محيا، لغيرك جسماً ولك خصر وقامة. وجودُ السوى في الأرض مكوث، ووجودكِ زيارة. جاؤوا ليعرفوا العيش، وكنتِ لتلِمّ بك الحياة.

ولربّ شعراء لولا وحيُكِ لا شيء، وحلقات أدب لولا رِفعَةُ بثّكِ أرائكُ عليها جلوس، وهتافاتِ مجد لولا صفاء نبرتك ضجّة، ونصرةِ حق لولاً طِرافةُ ما أنت صخبٌ وفراغ.

لم يكن عَمَلاً جديداً ردُّ أوسمتك الى الحُكم الكاذب. ولكنه يومَ اتممته ببساطة جاء صارعاً يقصم من ظهر.

في كلّ شيء، يا سلمى، كنتِ الحُسْن لا يغيب.

تحتجبين فيُعرف في الجو خُنق. حنقٌ يخيف دولة. تبعثين الى المطبعة برسالة على الخير فتُخجلين الاحياء بوهج رماد الموتى. وتُلقين درساً في جاف المواضيع فتُطِلّ من النوافذ، من بين الأربعة الجُدرُ، حديقة بورد وقطاف. ودائماً دائماً، لسطرٍ تَخطّين أو لخُطبة تلفظين، تغرورقُ عيون وتُشحذ اظافر.

كلّ ذلك برصانة بنتِ البيت.

لكم انت عريقةُ البادرة، يا سلمى. تجافين أم تحبين، وكالفراشة تَحُطّين على أرضِ بلادك أم تغتربيـن، في الحالاتِ جميعاً أنتِ الاطلالةُ النبيلة، والجُهد المرتاح، والترفّع عن الشعور بسلطان الدهر.

وكأني بالدهر، يا سلمى، جاءك، يوم جاء، وفي روعِهِ انه اخيراً بكِ ظفر. حتى اذا طرق الباب، قَصْدَ ان يفاجئك محطمةً على سرير، فيروّعك بايقاظ، ويثأر فيك من عزّةٍ ونبل، وكعبدةٍ ذلول يدفعك الى الموت دفعاً، وَجَدَك، على العكس، اميرةَ ابعاد، مُستعدةً في ابهى الحلى والحليّ. ومشيتِ، وهو الى جنبك اميلُ قليلاً الى الوراء كأنه الوصيف أو الحاجب، مشيت الى الموت كما الى مرقَص أو الى مِنبر!

سلمى صايغ، ان الشعر عندنا في حداد.

ولكنه مِن ذكر جلادِك يتّخذُ عزماً، وفي خطتك يجري فلا يَخنع. والجمالُ الذي غاب فإنما عن الأحداق

وحدها غاب. وها هو، منذ اليوم، يحتلّ الأخيلة ونبضات القلوب.

سلمى صايغ، كان جمالُك المزدوج عظيمَ السلطان على عظماء العقل، حتى لإخالهم اليوم يتهيبّون الإقرار بأنه انطوى.

ويومَ بلادي بأسرها تَمرّ أمام الربيع المسجّى تودّع رونقَهُ وتخنق الغصص، أبى نفر من أهل الوفاء أن يكونوا في المارين، ليبقى لهم أن يتصوروك — والدهر كأنه الوصيفَ أو الحاجب، الى جانبك، اميلُ الى الوراء — تجرين الى مرقصٍ او الى منبر، فتّانة صبا، اميرةَ ابعاد، كما انتِ اليوم في الكتب.

فنٌّ ولاهوت

مقدمة «الرد على مرداد»
للأب يوحنا الخوري، كانون
الثاني ١٩٥٦

ميخائيل نعيمه اسم. إسم بهيّ. تحبّه حبّكَ قِمّةَ الجبل الذي عليه يِعيش. أهو الآخذ منها شموخاً بعد ان آثرها على نيويورك عاصمة العصر، أم هي الآخذة منه ؟ أُرجّح الثانية. وآية الرجل انه محضُ اديب. عرفتُه وقد ترفّع عن كُلّ ما عدا الادب، فوقف نفسَه على القلم، يأبى إلاّ اليه التفاتاً، حتى في كسْب الرغيف. انه، في هذا، يجعل الأُمّة التي نمته في مستوى عِلْيَة الامم، حيث يأخذون انفسهم بشرعة شرف ألاّ يكون لواحدهم دخل إلاّ من المهنة التي اليها انتسابه. هكذا الثقةُ بالعمل، هكذا التوحّد مع العمل. من هنا ان الكلمة عند نعيمه هي هو. تَقطر إخلاصاً قبل أن

تقطر صواباً. يعرف أنّ بها بقاءه. يرفع الكلمة الى قُوّة المجد.

رأيي على الاجمال ؟ أحبّ ميخائيل نعيمه. أحبّه كواحدة من باسقات الأرز.

و « مرداد » كتاب ولا كالكتب في الشرق. كتابُ حياته. أفرغ فيه سني تأملاته جميعاً. فتناول الكون: حصائه والفكر، مصائره والله.

في لبنان نقرأ « مرداد » على انه رائعةٌ بشرية، وفي مصر يقولون انه كتاب العصر في اللسان العربي، وفي الهند يتلمسونه، في ترجمته الانكليزية المطبوعة هناك، كأنه وحيٌ آخر وفد اليهم من جوار وطن يسوع. ماذا ! كتابٌ كهذا سيُعدم اختصاصِيّاً يَنظر فيه على ضوء دُرْبة بعينها (من عدة دُرَب يستحق أنِ يواجَه بها) فيحطّمه تحطيماً؟

لكم ينبغي أن يكون « مرداد » عتياً حتى يصمد لكاهن شاب، لاهوتيّ قصيّ اللفتة، عليها راض فنَّ الجدل وراضه، قرمٍ عنيد يُخشى منه حتى على الحقيقة ان هي ما

تماسكت كفافاً، أو أبتْ أن تكون مُطلَقَ حقيقة ؟

أجْمَلُ حمْدٍ يوجه الى « مرداد » ان يَظفر بعداوة كاهن، كهذا، ذي ايمانٍ فتيّ ومعارفَ في عز صيفها.

وددتُ لو يُرزق كلّ أديب من طِراز نعيمه اختصاصيّاً في عِلْم ما، يبلوه معارضةً وعجْماً ويحكّه على مِحكّه بقسوة. اذن لعاد وقد تزّود لنتاجه المقبل بزاد لا يجاع بعده، ولعاد قارئه بغُنمَين: خيرِ الكتاب بحد ذاته، وقد أُنيرت بالحَطْم روحه، وجوانبه، وكل شِية فيه، وماهيّةِ ذاك العلم بعينه الذي عبّأ آلاتِه جميعاً اذ تنطّع لهذا الحَطْم.

وجزء ــ ليس إلاّ ــ من المحاسن التي تبسطها المُعارضة أنها تُتيح لك رؤيةَ عقلين متناقضين يفعلان الواحدُ في الآخر: هناك الفنّان يُلمع ويُلغز، وهنا الكاهنُ يدلّ على الحقائق باصبعٍ من نار. هناكَ الباني الأرضِيّ يرفع القِباب ويُنّوع، يتصور شهمَ الخيال ويطمح الى إسكان مَن لا سكن له في مقصورة من مقاصير قصره، وهنا الهادم من أجل بناء سماويّ، يقتلع الحجر بل المدماك برمّته، يُزلزل بقوّة مَن في يده الزلزلة ليُفرغ الهنيهةَ الهاربة

من صرح شِيد لغير الله. هناك الغَيْرة العاصفة بكل شيء تلفّ بعتيّ رياحها غير واحدٍ من اعداء واشرار تكرههم الى حدّ التعميم، الى حد توّهُمهم موجودين، كذلك، في قامات اصدقاء وخلاّقين، وهنا المحبة المسترشدة بتراث سبق ان رِيزتْ منه كلّ قيمة، كلّ خاطرة بال، كلّ تطلع الى بقاء، فلا تشيم قائمةً لخطأ الا قصدتها تُخمدها، ولا تعود من إخماد ظلمة الا وقد طمستْ في الطريق نجوماً يوجع طمسُها. ولكنْ، هنا وهناك، عملاقان. الواحد بما وراءه من تمرّسٍ بالقلم عريق، والآخر بما يَعمُر جَنانه من أصالة في المعرفة واستنارة بما فوق الزمنيّ.

وما كان الأب خوري في تغليفه اسم نعيمه باسم « مرداد » ومحاولةِ التفريق بينهما بغية التوسيع ليده في الطعن وهشم الفكر، ليقل عن نعيمه في رَشْقِه بالحجارة مؤسساتٍ هي ركائزُ التمدّن وقِيماً هي الباقيةُ على الدهر.

للأب خوري دَينٌ على منقوده اذ يهزّ الناس هزاً الى قراءة « مرداد »، كما لنعيمه فضلٌ على ناقده اذ يحرّكُهُ الى الافتنان في « رده » حتى لَيُكسب الجدليّة التي هو ابن بجدتها بريقاً ولا كبريق السيوف.

بقيتْ لي كلمة ــ أُمنيّة: أجمل أيام الشرق، ولا بدّ، يوم يروح فيه اللاهوت يتعرّض الى كل خاطرة ويَحكمُ على كل بشر.

الكلاسيكية لا إلى انتهاء

في أربعين مصطفى فروخ،
الجامعة الأميركية ببيروت، آذار
١٩٥٧

— ١ —

ذاك الذي عاش لا على الطُمأنينة ولا على العافية وانما على النور فقط — على النور يملأُ عينيه — ها هو، منذ أربعين يوماً، بدون نور في عينيه.

الحياة تذهب ؟ ما هم ؟ بذاتها ما عنت له شيئاً.

منذ مستهلها لم تُقبل عليه. استوحش. شعر بغربة الوجود.

ولكنه ما هرب ولا على الحياة استكبر.

ورأى ان يُسرّي عن نفسه بأن يعتبر الوجود دُمية تستحق اللهو بها، تستحقه الى حد الموت عنها.

قال لي هذا، ذات يوم في زحلة، وقد دعاني وتلامذته هناك، الى حضور تحفة تولد.

ــ « الحياة، هتف بي، كيف أعاملها كما تعاملني ؟ انظر: ها هو دمي يمصل، وعظمي يقشط عنه اللحم، ولكنني سأظلّ أكسو الخامات لحماً ودماً ».

هذا المساء، وقد انزاح وجهه عن عصر هو أحد صانعيه وبات لا شيئاً، لا شيئاً الا كلمة وموكباً ــ كلمة ننزلها في كتاب لبنان وموكباً من اللوحات نتعبّد له ــ هذا المساء الحزين، اتذكره واقواله وقصيدةً له من النضرة واللون راحت تنقلها يداه من دهشة العدم الى وطن الريح والصاعقة.

زيارته القصيرة للأرض كانت، كما كان يردّد، « كُرةً يَلهو بها بحنان، فتتفلّت منه قاسية وتُخسّره اللعبة ».

على أنه كان يأبى الا ان يظلّ بها رفيقاً رحيماً.

عَمَلُ إله هذا، يا عزيزي الفنان. الإله وحده يتحمّل عقوق الناس، وحده يغفر لهم.

الآن فهمت: عمرُك قضيته خالقاً، فما اسهل ما تعود متحليّاً بشيمة الخالق!

آثرت برءَ الجمال مهنة؟ أيّ حَدْسٍ يا ترى، أيّ حدس أوحى اليك بذلك دون سواه؟ من ملازمات الكائن الثلاث ما عَرفنا سوى الحقّ والخير. أما الجمال فكدنا لا نلمح له وجْهاً. أن تكون ترسّلت له بين اوائل المترسّلين، على الإفقار الذي كان يُنزله الفن بهم، يا الله، انه امرٌ ولا أروع.

واليوم، وقد اصبحت حتى الوطنية مُرتزقاً وباب اثراء، قانما على ترابات لبنان أن تشرئبّ اليك والى نفر من أمثالك وتبدي أمتنانا.

وكنتَ للتصوير بالذات. فنٌّ وقفٌ على العين. تلك التي لا تزال عندنا أحوج الى ترهيف، أحوج الى تمرّس برؤية النور.

في الصوت كان لنا يد، وكان لنا مثلُها في مزج النغمة. أما التصوير فكاد يكون عندنا اجنبيا. مع أن العُرْيَ منه — كالغزل من الشعر — هو موضوعُ المواضيع في شحْذ الارادة، ومدّ اليد الى ماهية الوجود.

لا اثينا في الشرق ولا فلورنسا. أدركتَ هول الفراغ. فبدأت. وعملتَ عمل الجبابرة.

وكنت كلاسيكي النهج. وكيف لا تكونه ؟ والصحو انما جلبب عقلنا والسماء. تاريخنا ضوء لا غبش، وأرضنا انقشاع لا ضباب. نحن والاغارقة في أُسّ المدنية. من العائلة الفكرية الواحدة. عملنا للانسان قبل ما عملنا للزهرة. ليس من الصدفة ان تكون هرمونيا الاغارقة زوجةَ قدموسنا العظيم، وزوشُ الهُ الآلهة عندهم مختطفَ أوروب اميرتنا الصيدونية التي باسمها دون سواه تسمّت قارةُ العقل والجمال والذوق.

واخيراً يوم اجتاحت بلادنا موجةُ تجددٍ عابث — زكامٌ اصاب باريس! — أبيت الا أن تصمد. متّ صباح مساء، اتهِمتَ بالجمود، كادت تُحذَف اريكتك من المعارض.

ومع هذا ابيتَ الا بقاء على العهد، ووفاءً بتراث عالميّ لنا فيه وله فينا. ذاهباً مع اخيار الريشة الى أن الكلاسيكية رقعةٌ تتوسّع دوماً، ودقائقها مجالاتٌ ما لها نهاية.

وبلغ الزيغُ بالذوق العام ان شُنّ عليك مثلُ حملة اضطهاد. وعُددتَ في الأموات. على أنك كنت تُصغي لا الى شنشنة الذين خانوا، بل الى هُتاف جبلنا والبحر ان « امض في عنادك » فأرضنا انما شهرت ـــ منذ فتوة الدهر ـــ بطائر الفينقس يحترق على مذبحها وبعد ثلاثة يقوم من رماد.

ومرضتَ المرض الذي لا شفاء منه. وخيّل الى غير العارفيك أن همّتك ستخمد، والوانكَ ستفقد ما لها من بريق السيوف. إلا أنك كذّبتهم.

ـــ هذا الجسد، كنت تقول لي، يوم جاءني لم يَستشرْني. وها هو اليوم هكذا يذهب. أما عيني، عيني المليئة بالصحو والارادة والتطلّع الى قولبة الآن، فهيَ صنعي وصنعُ هذا الجبل. تكفّ يوم نكفّ كلانا عن أن نكون.

الجبلُ باقٍ، يا صديقي مصطفى، وكذلك أنت.

أبمئاتِ صُورِكَ، تلك التي هي خَطّنا، من الذي نقش ناووس الاسكندر في صيدا — وهو آية الآيات في متحف اسطنبول — الى الذين رفعوا بعلبك، اليك أنت الواضح، النضر، الغني، البسيط على أناقة، القويّ، الرضيّ على محاذاة طرافة، الهادر، المئناف، المتطلع أبداً الى الهزء بالقدر، مراً بارباب الأزميل والريشة من اثينا وفلورنسا، ابناء ابنائنا في القدم واساتذتنا واساتذة العالم كلّ يوم، لا، لا بكلّ ذلك وحسب، وانما انت باقٍ بالانسان الذي كنتهُ بيننا: تناضل ولا تكلّ، تتألم ولا تصرُخ، تخان ولا تخون، تموتُ ولا تكفّ عن عطاء.

مصطفى فروخ إننا نحبك.



حول كتاب « النبي » لزين
العابدين رهنما، تشرين الثاني
١٩٥٧

— ٢ —

صديقُ لبنان الأوّل. سفيرُ إيران عندنا ذاتَ يوم، القلبُ الطريف الكبير، القَلَم الساحر، زينُ العابدين رهنما، رهنما فقط، أيّ لبناني لا يَذكُر هذا الاسم المحبّب الجميل ؟!

امس وصلني من « دار الفيوكولونبيه »، في باريس، كتابُه « النبيّ ». فقرأتُه في ساعات من لذة لا توصف.

حول نبيّ المسلمين أُهرقت اطنانٌ من الحبر، وستُهرق اطنان. ولكنّ لكتابِ رهنما نكهةً خاصة.

في أدب سِيَر الرسول، هذا الكتابُ يقول جديداً.

لأوّلِ مرة تُسهم الريشةُ في تبيان الانسان في رَجُل الدين. لم يتناول رهنما كُلّ محمد، وإنما ناحيةً من الف. هي قلبُه. هي الطيبة. فاذا به يتناوله كُلّه. الجزء هنا شَعّة على الكُلّ.

تبارك القَلَمُ الخلاّق يقبس من السماء ما تكاد السماء به تَضَنّ.

على كل مسلم أن يتعرّف الى نبيّه في كتاب رهنما. إنّه ليَجدُه أرضى وجهاً منه في كُلّ سيرة، وأطرفَ بادرةً، وخصوصاً أعطى.

وعلى كل مسيحيّ أن يتعرّف الى محمّد في « نبيّ » رهنما. فهذا الذي جمع القاصّ والمُفكّر والصوفيّ والشاعر، انما وجد السلكَ الفريد يشدّ حضارةَ الشرق الى بعض ما يعوزها. واذا هذا البعض قلب محمد.

الأدبُ الشرقي خطابيّ، مهتاجُ النبرة، فخْم. فجاءَ كتابُ

رهنما يقدّم إسهاماً حاسماً ـــ ارجّح انه سيوجد مدرسة ـــ في ردّ القلم الى البساطة. البساطة التي هي صعوبة ونضارة معاً.

ولكم تتزوج روحُ النبيّ كما اكتشفه رهنما وفنّ رهنما نفسه. كلاهما عطاءٌ عذْب، كلاهما قلب.

النبيّ في كتب المؤرخين الغربيين وأصحابِ السير المشرقيين يَصرع. وهو عند رهنما يؤاخي. هناك هو عظمة وهنا سماء.

تُستعاد فصولٌ برمتها من كتاب رهنما. وهي إنما كُتبت ببثّ باريسي رفيق، ورُفعت عماراتها ـــ وكُلّ فصل عمارة ـــ بعَملِ خيالٍ ولا آنق.

ان النصّ الفرنسي، كما يُخيّل الي، حاول أن يوحّد بين منطقية الفرنسية التي اطلعت ديكارت ونضارةِ الفارسية التي هي بنْتُ حقول من الزهر تمتدّ في ايران الى ما لا حدّ. فارسُ الشعراء وفرنسةُ المنطق تلاقتا. الكلمة عند رهنما زهرة. وهكذا العبارة. تراها نتيجة لشخصيّة النبيّ كما

أوحِيَ بها الى هذا الحالم الكبير ؟ شخصيةٌ محببّةُ الغنى، دائمةُ التجدّد، تأخذُكَ بالطيبة والخير اكثرَ منها بالسيف.

لن أستبق الغَد. ولكنني أؤكد أن هذا الكتاب سيُعتبر حدثا. قد يُساهم في جعل مُحمّد لغير الملسمين أيضاً.

بقي ان تعرف أن تحت مُقدمّة الكتاب، الى جنب الحروف الأولى من اسم رهنما، كلمة « بيروت ». يا للفخر يسجّله هذا القلم الوفيّ بلبنان. إنه ليعترف لقرائه بان نسمة من بلادنا مرّت على جبهته يوم كان يَضع سفره الفريد. فكأنها، هي أيضاً، عملت على جلاء هذه الناحية المشرقة من نبيّ المسلمين. غداً، عندما ستتغلغل روحُ الفنّ الرهنمي في ملايينِ الهاتفين: « الله اكبر » كاشفةً لهم كنوزاً من العاطفة لم يعرفْها سوى الصحابة والصوفيّين، سيكون لنا، هُنا في لبنان، أن نعتزّ.

هناكَ تقليدٌ يقول إن مُحمّداً زار بيروت. أمن أجل هذا يا تُرى فتّش رهنما أيضاً عن حقيقة النبيّ تحت صنوبرات لبنان ؟ واذا لبنان، بسمائه وأرضه وجداوله وإطلالة قمره، حاضرٌ في هذا الكتاب، بكُلّ شهامة من شهامات محمّد. محمد.

فن العمارة ببعلبك

القيت يوم احتفاء « الندوة اللبنانية » بناظم حكمت ضيف

لبنان، نيسان ١٩٦٠

اكثر من شاعر! انه يدّ من فوق.
وطلْقٌ هوَ، طلق كما الريح، وكما موجة البحر.
ولكنه إن ضيم انسان يُصبح كالارض مسّتها الزلزلة.
مادة من هاجس قلب، ومن رأرأة عين محرورةٍ الى الانغماض على وردة. وتكون الحياة هي الوردة. ويكون الشوك في العين.

من هنا انه يصرخ.
الصراخ في الفن، كالخطابة، عدوّ الشعر.
إلا أن ناظم حكمت يظلّ، برغمها، شاعراً.

تراني أوفّق الليلة الى فض الختم الذي على السر ؟

هذا الوافد الينا من أعماق الحُلْم الأسيويّ، بعد أن طوّف في جنبات المعمور، وغنى بالأوتار الانسانية جميعاً، تألم كما لا أحد، وما بكَى.

لانسلاخ ٍ عن وطن ٍ قد لا يرجع اليه إلاّ جثةً مغلّفةً بعَلَم، ولكن مثقلةً بأمجادِ جميع الأعلام، مات صباح مساء، وما بكى.

رَئِس محافل تفتّش عن جديد، نجح مرّةً والف مرّة فشل، وما بكى.

ثار لحَطْم ٍ قيودٍ ولا كقضبان السجون، تخنُقُ الفِكر في تجوابه بين الشعوب، أو لِكسْر حرابٍ تسدَّد الى ورقة باتت تخيف، لمحض ما ان مرّت عليها غزّارةٌ له شهمة، ثار احياناً عبثاً، وما بكى.

دُمّرت عليه اعصابُه وشُوّشت رنّةُ قلبه، وما بكى.

بسبب كلماتٍ كان يُرسلُها تلهب وطنَه الصغير، تركية،

ووطنه الكبير، العالم، قضى ثُلْثَ عمره مكبّلاً بالحديد، وما بكى.

ولكنّ اجمل دمعة خنقها هي التي تهيجها كلّ يوم ذكرى زوجة له وولد فصموهما عن الذهاب اليه، فراح، هو، على قلمه وفي شعره، يحمل الى الدنيا عيني الحبيبة الذهبيتين، والى جميع غصون الشجر زقزقةَ الطفل الذي بات اسمه على كل لسان.

ما بكى ؟ ولكنه صرخ. صرخ وما اضاع الشعر.

وتمت الاعجوبة لأن ناظم حكمت جعل الصراخ نفسه جميلاً.

زوجته وولده طليقان في تركية. ولكن لا الى حد أن يستطيعا زيارة لمن هو ملءُ منابر العالم وملءُ هبوب الريح وانزراع النجوم في الجَلَد..

هذا الضرب من البقاء على قيد الحياة (وكيف يكون الموت ؟!) هو كلّ ما للبشر من حرية.. هذا النوع من

الحقّ باستنجاد الأب والـزوج (وكيف يكون الحرمان ؟! ..) هو كل ما للعائلة من فُرَص الحياة..

الصراخ مَسْخٌ للإنسان، نفيٌ للشعر. هدوء الصوت وحده جمال.

على أن نستثني صراخاً اخترعه ناظم حكمت.

لو ان غيره هو الذي أعلى النبرة بهذا المقدار، فيما يروح باسم البشرية يمدّ يداً الى السعادة، لبطلت رُقى السحر ولانعدَم البهاء. ولكنّ فنّ ناظم حكمت جعل الإنسان الجائع الى حنان، يستنجد بذراعين اشبه بتينك اللتين لامرأة خلف بحر مرمرة تقول: « ناظم، أنا هنا على الوفاء ».

لو أن غيره هو الذي غضب بهذا المقدار من الصخب، فيما يروح باسم محرومي الارض يستقوي ويُقوّي، لتعطلت من الضجة نياط الكلِم، ولمات الجمال. ولكن براءة ناظم حكمت اطلعت الغضبة بلثغة ولد خلف اسطنبول، إن اعوزتها الحروف كَفَتها ثلاثةٌ في لفظة « أبي » لتهز الدنيا وتقيم من قبر.

بين الشعراء يكاد ناظم حكـمت وحده يجيد الصراخ.

* * *

متطلعٌ الى المعرفة، وكاسبُ عيش (شغّيلٌ من شغيلة العالم !)، وسياسي موقظُ شعوب، باني عالم جديد.

ودوماً شاعر.

من هنا اننا التقينا قبل ان نلتقي.

فرّقتنا وسيلة، وربما فلسَفَةٌ على مصير الكون.

لكنّ حبّ الانسان، في ارادة نشله من البؤس، والحدب على وحدة الاسرة البشرية، والتطلّعَ الى دكّ قضبان الحديد (اذ من العار ان يبقى المرء اقلّ من الريح طلاقة وفُسحةَ مدىً) كلّ هذا قرّب بيننا.

وما تبقّى عملِه الشعر.

ونحن في لبنان نلتقي وناظم حكمت على الثقة بطيبة الانسان، وبأن الارضَ بطبيعتها لا تضيق. قال:

« الشجرة التي تطلع الرمّان مرة في السنة، بمقدورها أن تُطلعه الف مرة.

« عالمنا، لو نحن نذكر، كبير وجميل ورحب ».

وقلنا:

« نحن غير الغزاة ننزل قفراً
فنخليّـــه أنهـــراً وجنائـــــن »

سَهْلٌ سهلُ المضيّ في الاستشهاد بنصوص من كلا أدبينا، هي ــ على تباينها شكلاً ــ توحّدنا على العجب. ولكنني سأجتزئ بالتي لناظم.

على حِدّة وعي الزمان قال:
« أمس ما كان حان الوقت.
وغداً يكون قد فات الأوان.
اليوم، اليوم قولٌ فصل ».

وعلى الدعوة إلى الاستمتاع بالهنيهة، شريطة اكتناه الطيب الذي وراء الاستمتاع، قال:
« ما أجمل أن نعيش
ونفقه القول
كمن يقرأون في كتاب ».

وعلى التبّرم بالظلم في توزيع خيور الأرض، قال:
« الاهراء موصدة الأبواب.
الاهراء تغصّ بالقمح.

والأنوال بمقدورها أن تنسج الخزّ والحرير، حتى لتفرش درباً من الأرض إلى السماء. هذا، والناس حُفاة ».

وعلى رهافة التحسس بالجديّة قال:

« ليست الحياة ضرباً من مزاح.
ما عليك أن تعمل إلا أن تعيش ».
« ستموت وأنت تعرف أن لا أحلى ولا أحق من الحياة.
لا، لا تؤمن بالموت ولو رهبتَه ».

والتقينا مرّة على جعل الغزل، رغم أنه غايةٌ جلل، هو نفسه وسيلة. قال:

« الصيف ولّى هازئاً بي
مُصعّداً صرخات مجنونة
فلم يَتسن لي أن أحملَ إليك
باقة من بنفسج أصهب
ما حيلتي ما حيلتي ؟
كان الأصدقاء جياعاً وأكلنا بثمَنِ البنفسج ».
ولكن ناظم وجع أكثر مما فعلنا.
هذا ما لم نعرفْهُ إلا في النثر.

تراه وحده وُجد ليقول: « انا جرح الكون فضمدوني، أنا كسر في فقرة الفلك فأعيدوا عظمي الى ما كان عليه. وأقف. وتقف معي البشرية المنحنية الظهر » ؟

إن قُيِّض للإنسان، غداً، فردوسٌ أرضيّ يحكي ذاك الذي بسطه اللاهوتيون في كتاباتهم الطريفة، فيكون ناظم حكمت قدم حجراً لهذا الفردوس،

ولأغراض ناظم حكمت ثراء فوق الوصف. حتى لِيُعَدّ بين الكبار: دانته، شكسبير، فاليري. له مثلاً وجهُه الكونيّ. ففي مرسحيته « المعاندان » يتعرّض لأكبر اثنين يذكران كلما ذُكر الكون: الموت والحياة.

هو ناظم حكمت يعيش في مناخ باسكال وكنط، ويحرك قلماً بقوة القضاء والقدر.

* * *

عصفور طار من الشرق وزقزق على جميع أغصان الوجود، ليحمل ولو بمنقار صغير لقمة إلى فراخ العشّ الذي يسمّى الأرض.

الله يا الله، مَن قال إنهم في وطن ناظم الكبير لا يأبهون إلا للمأكل، أولئك الذين كانوا أول من دقّ على أبواب النجوم ؟ « افتحي، قالوا، إن إنسان الأرض يطرب لسماع روح الفلك تغنيّ، تغني هي وهو يرقص ».

هو الجمال الأعظم يُفضى إليه عن طريق العلم ؟ إنها أيضاً من موضوعات ناظم حكمت.

يوم قمنا، جورج شحاده وأنا، إلى السفينة البيضاء نستقبل الشاعر العالميّ الوافد إلينا من جميع أنحاء الكون، مثقلاً بغبار النجوم، ليمرغَ نظره، كما قال لنا، على أعمدة بعلبك، أعجوبَةِ البشر وربما اللابشر، ويتماسّ بما هو أعظم من بعلبك: النفس اللبنانية، تلك المدعوة إلى استئناف البناء فوق، ودوماً لمجد الانسان، كنّا نعرِف أن ناظم حكمت هو أيضاً لبناني على نحو ما.

ذلك أنه، رغم غضبَاته وشظايا قلمه، بقي مثقلاً بالمحبّة.

مِنّا، إذن، مِنّا. من عاصفة تضرب قِمم لبنان وتبقى إنسَانية.

وباح لنا ناظم ببعضٍ من سره. قال:

ــ يوم كنت صغيراً عشتُ بضعةً من عمر، أنا وأغلى وجه عرفت، عشتُ أنا وأمي، على أرض لبنان.

الأمة العظمى

مقدمة « حقائق لبنانية »

لجورج سكاف، نوار ١٩٦٠

حقائق لبنانية ! وهل يتطلّبها الوضع ؟ بلى، وسيتطلبها استمراراً.

لا نقولها تخوّفاً على وطن كما الرأسُ من الجسم صغير أو على أمّة لا كما الجنسُ البشريّ من مليارات ومليارات بل حَفْنة عدد (والوطن باقٍ والأمّةُ باقية كما، عفوه تعالى، وهو باقٍ الله) وإنمّا نقولها تذكيراً بمجد واستزادةً من عزم يَلذّ وأحياناً يُسكر.

إيمانٌ في صميم الصميم من كلّ لبناني، أيّاً كان منبتُه

أو مهوى فؤاده، يُعلنه لنفسه متى خلا بها ولم يكن إلى جنبه من يزكزكه محتكراً عليه اللبنانية قال لِمحض ما انه هو على دين وذاك على دين آخر.

اللبنانيون جميعاً، قصدتُ من وُلدوا على هذا الثرى الذي من فَتّ المسك، وتحت هذي السماء التي لزرقة لا تضارَع تكاد تكون أنضرَ ما عمدته زَنْدُ الله، وكذلك من انتموا اختياراً إلى هذا الثرى وهذي السماء، إنما يستحيل أن يُقصّر واحدُهم عن الآخر في التعلّق بوطنٍ هو حُقّ أمّة وبأمّة هي مُقولبةُ وطن، الواحدُ حدود الجمال والأخرى جماعةٌ تَفرّدوا فما نشط مثلَهم أحد ولا مَثلَهم أحدٌ سخا وأبدع.

نداءٌ ولا السّحْر يوجهّهُ لبنان، أرضاً وتاريخاً، إلى الجسَد والعظم، إلى نبضة القلب، إلى الروح ونسمة الحياة، من كُلّ مَنْ أُعطيَ قُلامةً من حظّ بأن يكون لبنانياً.

تراني أغلو ؟ أتخيّل الريح المحملة حنقاً كلما انتهت إلى قممنا تبدلت وغدا غضبُها شَمَماً، والموجةَ الوافدة من

آخر الأرض قلقةً موجعَة كلما حطّتْ في شطّنا عادت هي أيضاً إنسانية. والحياة الأجنبية كلما تنشّقَتْ من عَبق زهر الليمون في صيدا أو انطلياس أو طرابلس استحالت بعضاً منا، من نَسْجِنا، من لون أفقنا، ومن شهامة خواطرنا الغنيّة المئناف. ثَمَرٌ مشاتِلُه عند مُنقلب العالم ما كاد يتأقلم في لبنان، يَربى على المطلات العالية ويترنّح غصنُه والورق، فوق، على رياح الجبل، حتّى عاد وهو ذو النكهة التي من ماء الورد والطعم الذي من سُكّر الخمر. تفاحُ كاليفورنية، هذا الذي عَنيت، ظلّ أشبَه بالنبات البريّ حتى اكتسب أمْويّة اللبنانيين. وكانت المسيحيّةُ قد غدتْ أنعمَ وأطرف منذ أن هدهدتْ أجراسُها بنتَ قنّوبين الحلوةَ الحلوة مارينا، والإسلامُ قد ازداد وَتَراً ولا أروع منذ أن عَمر به صدرُ ابنِ بعلبك الأوزاعيّ العظيم.

غيرُ واقفين على نَفْح هوائنا، وقَرْشَةِ مائنا، وطرافةِ الخواطرِ في بالنا، وجَللِ ما يُمكن أن تصنعه إبهامٌ لنا كلما التقت بسبّابة، أولئك القائلون بأنه يُحتمل أن يكون منا واحدٌ ليس مولعاً بلبنان، حُقاً ومحتوىً، أوْ ليس مُدّلاً على البشر جميعاً لِمحض ما انه لبناني.

كُفْرٌ ذلك لا بالناس بل بجبلٍ أوجد بعضاً من أجمل نماذِج الناس.

أجسامٌ فيها من عناد الصخر ونُبلِ القِمّة، من لُطف النسيم وطموح الموجة، وفيها من بهجة المنظر يتنوّعُ كل آن. وعيش فيه من كلّ حرمان إلاّ أنه الحُريّة بالذات، وفيه من إرادة لا تُوقَف بتبديل الذات والكون أكثفَ وأجمل، وربما بتبديل الطريق إلى وجه الله. وعلائقُ بالسوى، على كونها عند الاقتضاء بلغتْ ذروةَ البطولة، ظلّت أبداً تريد نفسها إبداعاً لا سَفْكَ دم. إنها لعمري قصّة إنسان أُعطي وُسْعَ العطاء، فاذا هو المقدور يتطلّع إلى الممكن ومنه إلى خرق حدود المستحيل.

كفى بيار هوباك، مُفكّرَ أوروبة الإنساني، الواقفَ كما لا أحد على روح تاريخنا العظيم، أن يتماسّ بنا، وطناً وأمّة، حتى يضع عنا سِفراً فيه أسطرٌ أجمَلُ ما خرجَ من يد بشر، وحتّى يَعنفَ مع نصوص الكتاب المقدس فيقولّها الكلمةَ التي تُزلزل « وُلد الله في لبنان ».

في وجهِ وفد جاءه يوماً يطلب ربطَ لبنان بفرنسة، زأر فكتور برار، وهو يومئذ على دفّة الخارجية الفرنسية، وكان أجرأ من أفصح عن رأي ولو ضدّ نفسه:

ــ « ماذا ! تُعطَوْنَ الحظّ بأن تكونوا لبنانيين وتريدون الانتماء إلى أمّة أخرى مهما كبُرت وعلا شأنُها ؟ اسمعوا. أنا أشدّ الناس تعلّقاً بهوميروس: وضعتُ عنه ثلاثةَ عشر مجلّداً لأنتهي إلى أنه ليس إغريقياً. واليوم تخوّلني دراسةُ عمر أن لا أتصور مؤسس أوروبة، شاعرَ الشعراء هذا، إلا عظيماً من عظماء لبنان ».

إلى نحو من ربع قرن كان لي أن أمُرّ صدفةً بروح لبنان. لم أقصد إليها، هي التي قالت لي حضورَها العليّ العظيم. ومنذئذ شرعتُ أتعرّف بها أكثر، أدرُسها اندلاعاً في التاريخ ونصوصاً تُفصح عن عظمة. وهكذا أُعطيتُ أن أنبش تاريخ الفكر اللبناني، وكان إلى يومها نَسْياً، يظنّه هذا غير ذي شأن ويخاله ذاك معدماً لا وجود له. حتى إذا أخذتْ أصابعي تبعثر اللألاء وتلهو بخواطر في أبهى ما

أطلعه العقل، رجّ في داخلي شعورٌ ولا كالولادة الجديدة بأن الأغارقة أنفسَهم لم يكونوا أمجد. وأيقنتُ كم نحن صائرون إلى موت إن لم نُغدق هذا الغيث على العقول العطشى. وافتتحتُ في عدد من معاهد التعليم عندنا تدريسَ المادة المنعشة. مُوحداً قمتُ بذلك ولمّا ازل. اليوم، وقد بلغ درسُ الادب اللبناني أشدّه، عدتُ لا أخشى عدواناً يقع على أُمةٍ الارث الباهظ، أيا كان جبروتُ المعتدي. ذلك ان تلامذةً لنا هم هنا. سلطانهم لم يصبح كبيراً بعد، ولكنه على أيّ حال يجعلهم قادرين على اللهو بالموت.

النفسُ اللبنانية، ذاتُ الخدمة الراقية الى سبعة آلاف سنة، لا يعدلها سوى المعتَزم اللبناني.

لفترة من الدهر كانت صور تُدعى « الحاضرةَ التي لا تُغلب ». تجرّؤُها دون سواها على معاندة الاسكندر واحدٌ من فصول الكتاب.

على أنها تأبى أن تكون علّمت البطولة وحسب. منذ القديم القديم بَنَتْ صورُ للإنسان قصوراً وبنت معابد لله.

هيكلُ سليمان لم يشدْه الحيرمان، المهندسُ والملكُ، إلا لأنهما سليلا من سبق لهم أن بَنوا وأعلَوا.

لبنان، في أُسّ ما هو، بلدٌ مِعْمار.

العمارةُ غير الهندسة. هذه عِلم. أما تلك فعلمٌ عُزّز بجمال. الهندسة قوّة والعمارة قوةٌ تجلببت الروعة. من تلك إلى هذه خطوةٌ ما كانت لتُخطى لولا بعضٌ من مزيد معرفة بماهية الله.

الله أول ما يتجلّى بأنه قوة. ولكن الويلُ لمن لا يعرفه إلا بهذه. ثم يتجلّى بأنه معرفة. ثم بأنه عطاء أي محبّة. وتألّق الثلاثة في الله هو الجمال.

العمارة، تلك التي تفرق عن الهندسة بأنها من جمال أيضاً، انتهينا إليها قبل سوانا لأننا وحدنا إنما عرفنا الثلاثة في الألوهة: القوة والمعرفة وعلى الأخص المحبّة.

لبنان، منذ هو بادر جمال، عمّر في الأبعاد جميعاً. عمّر في الجوّ، في البحر، في البال. سواه حفر البناء في الحجر،

أما هو فرفع بناءَ الحجر. بعلبك التي من أعمدة ولا أعلى ما كان يمكن أن تتم إلا في لبنان. العظمةُ والجمالُ والارتفاعُ انما مَزْجُها تقليدٌ محضٌ لبنانيّ. سواه بنى للخلائق الدنيا: للحيوان، مثلاً، ألّهه وشاد له المعابد، أما هو فما بنى إلا للإنسان ولله. سواه أنزل خشبة إلى الشاطئ الهادئ، أما هو فبنى السفينةَ قصراً للعمل في عرض البحر، لمعاندة العاصفة، لتحدّي هول الأوقيانوسات. سواه، بغيةَ نقل الألفاظ في الزمان والمكان، نسخها نسخاً: الوفُ هي فصوّر لها ألوفَ الصور، أما هو فبنى الكلمة حرفاً حرفاً، أعلاها حجراً حجراً، حتى لقد بات للفكرة قصرٌ تسكنه أميرةً هذه المرة. واليوم بعد أن شرعت الصين تهجر التصويريّة البدائية إلى الهجائية الفينيقية يكون ما بقي شعبٌ في العالم إلا أسكن خواطرَه عمارةً لبنانية. كل مؤسسات البشر، يقول موريس دونان، مكتشفُ جبيل، تتحمّل استكمالاً إلا مؤسسةَ الهجاء، هذه وضعها اللبناني وكأنما وضعها نهائيةً على تمام.

وفي هذا الألف الثاني، الألف النورانيّ العظيم، فيما كنا نكتشف العمار في الجوّ، في البحر، في البال، راح واحدٌ منا يكتشف العمار في المادة. إنه موخوس الصيدوني، من

أبناء القرن الثالث عشر قبل المسيح. « المادة ؟ لاحظ متسائلاً، انها أحَطّ أنواع الكائنات. يستحيل إذن أن لا تكون أقربَ ما يكون إلى العدم. قليلُ وجود في كثيرِ فراغ ». قول موخوس هذا هو أول فرضيّة للذرة، يقول ماسون أورسيل[1]. وعنه، يزيد هذا العالم، إنما أخذ ولا بدّ لوسيب وديموقريت اليونانيان.

انها عمارةُ الكون الصغير تعلو على يد ابن صيدون موخوس، كما، على يد ابن صيدون فيثاغورس، ستعلو عمارةُ الكون الكبير.

إنهما في العالم أولُ ذرّي وأولُ فلكيّ.

هي تقاليد العمار تواصل فعلها وينطنط أصحابها على مقربة من طرفَي الوجود: العدم والله.

هنا ! هنا نحن في أية مغامرة ؟

يوم راحت الصبيّةُ عَشْتريم تُعطي في صيدون إشارةَ البدء بإحراق المدينة، بقصورها والشيوخ والأطفال، لكي لا يبقى وراء المقاتلة ما يَلفتهم إلى الوراء، في مقاومتهم

---

١) « تاريخ الفلسفة » لإميل برييه بالاستناد إلى « جغرافية » سترابون ٦، ١٢ و٢٤.

أكزرسيس الثالث، ذاك الذي جاء يُغرق بطولتهم بالعدد، فمشوا إلى المجد – وما يزالون ! – ما كانت سكرةُ البطولة الجماعية هذه، على تفرّدها في التاريخ، بأروعَ من سكرة موخوس يدفع عنا، منذ فجر الزمن، سطحيّةَ الحس العام القائل: « إن المادة مِلءٌ بملء ».

وَعْيُ أمجاد لبنان ؟ بلى، إنه للبنان جيش آخر، جيش لا يُقهر.

وأعجب ما تنتهي إليه، فيما أنت تتعمّق أوضاعَ البلد الفريد، شعور أبنائه – وحدهم على الأرجح – بأن لهم مواطنيّتين. فكأنما حَتْمٌ على اللبناني أن يكون عالمياً وعلى العالميّ أن يكون لبنانيّاً.

الأُمْويّة اللبنانية، في أشرف ما تَدين به، تفرُق عن سائر الأُمويّات بأنها من لبنان ومن العالَم.

ولبنان، كما الله في اللاهوت، لا يقبل نعتاً لا ينبع من ذاته. كل نعت أجنبيّ تُطلقه على وطن إنما هو اقتلاع لهذا الوطن من شروشه، من أرضه وتاريخه، وخصوصاً من ذاته

التي هي معتزمه العظيم، ثم جعله يتوكّأ على بعض ما هو سواه. عراقتنا في الانسان تجعل وطننا اشبه بهذا المتفرّد الغنيّ الذي هو الشخص. الشخص هو من التمام بحيث لا يتطلّب اكتمالاً بآخر. وهو من الطموح بحيث لا يرضى بديلاً عن الكليّة.

أشبه ما يشبه الأُمْويّة اللبنانية انسانٌ اجتمع فيه الحبّ الى المحبة.

الحُبّ ان تَخُصّ قلبَك بواحد، فان أضفتَ اليه آخر خنتَ الحُبّ. والمحبة ان تمنح نفسَك للبشرية جمعاء، من سَبق أن وجدوا ومن هم في الوجود ومن سوف يوجدون، فان اسقطتَ منهم واحداً خنتَ المحبة.

الأُمويّة اللبنانية، ولربما وحدها، حبّ ومحبّة.

اللبناني؟ بالحب هو للبنان وحده لا يشرك فيه، وبالمحبة هو للبشرية كلّها لا ينتقص منها ولا أمّة.

من لم يُدرك هذا الثراء، نتفرّد به بحكم تشابك هانين العاطفتين فينا، (وانهما لذُروة ضَرَبات القلب)، وكيف

انهما من خصائص الانسان المتكامل، استحالتْ عليه معرفةُ ما نحن.

محضُ أُمْوِيّة لبنانية معاذ الله ان نمدّها بأخرى. على انها عالميّةٌ بقدر ما هي ذاتها. إذ أشرفُ ما يمتزج به الحُبّ: المحبة.

وليس لبنانُ ماضيَه وحسب، على جَلالِ ذلك الماضي، ولا هو حاضره وحسب، على تفرّد هذا الحاضر — رغم الف هناة تشوبه — بانتمائه الى قِيَم مصيريّة أروعها الحرية. وإنما لبنان هو أيضاً، وخاصة، انشداده الى المستقبل. أمّةٌ من فصيلة أُممٍ تأبى ان تحدّ بحدود. ووحدَهُ المستقبل لا يحد بحدود. إذن، برغم ما يطالعك به من ثراء، يَظَلّ لبنانُ الواقعِ هذا لا شيئاً إن هو قيس بلبنان المُعتزَم.

سنربض على صدر الدهر. سنخلق نفسنا استمراراً. (تجدّد لا يَكفّ !). سنُنزل دوماً الى ساحة الوجود أشياء عظمى، أجملُها اعتزامنا بأن نتبدّل ونُبدّل ولكن دوماً صوبَ المزيد من الحَقّ. كلمة الامر عندنا: « نأتي عجباً أو نموت ».

هذا نحن، منذ أن اندلعنا في التاريخ وشَرَّرْنا عزْمَنا على البحار. هذا، ولا شك، ما سوف نكونه غداً منذ سنروح نتململ بين السُدُم والنجوم.

فَتْحُنا العقليّ، ذاك الذي تفرّد بين الفتوح بأنه ما شيب بسلاح، إنما ارتضيناه خطّ مُضيّ لا يزال في اشرف الخطوط لا نحيد عنه ولو في أشدّ العهود ظلاماً: من انزالنا الى الوجود الاداتّين العظمَيين لنقل الخير: المركب والحرف، الى كَشْفنا الوحدانية، الى نشاطنا بذوق ولدغة جمال في صيدون، الى تَرَسّلنا لقضية العدل في بيروت، الى صمودنا — وكأنما وحدنا في الشرق — الى جانب الحرية، ليبقى لنا الحقّ باختيار شكل العيش، والحق بالافصاح عن الرأي، والحق بعبادة الإله الذي نشاء، (مما بلغنا به حدّ التوكيد عالميّاً على حَقّ المرء بتغيير دينه)، الى عيشنا اليوم (وسْطَ صراع العقائد الذي يلوّث ببغض) وكأننا أصفى الخلائقِ ذهناً أو كأننا (على تقاعسنا أحياناً عن الاسهام في العلم) أعرفُ الناس بما يجب أن يكونه روحُ العلم، ذاك الذي به سَيُؤَازَرُ الله في استكمال خَلْق الكون.

وجودنا في التاريخ هو، كما ترى، اعمق مغزىً ممّا قد يبسطه القول: « بلدٌ صغير لأمة كبيرة ». وجودُنا كان، كما سيبقى، يداً في البرء من عدم وطَرْقاً على باب المستحيل.

« حقائق لبنانية » هو لواحد من رفاقنا بالذات. عقلٌ فتيٌّ منفتحٌ صمد مع لبنان كما ولا احد، لأنه إنما عاش غير مغلق على مجهودات الكشف عن ماهية الأمة العظمى. وهو هنا، في باكورة نتاجه، يقسط لنفسه قسطَ القلم النَير في التفجير والتّرسل. وغداً بعد أن تُصبح هذه الحقائق في كل نبضة قلب، في كل شمخة رأس، سيخجل جَمٌّ من القادرين، لأنهم تقاعسوا فما ولجوا قلبَ المقلع ولا مثله قَصّبوا من الضوء وراحوا به يبنون ويُعلون.

في كتاب جورج سكاف تجرّؤ على مس المُحَرّمات، تنقيبٌ عن الكنز وتنقيته مما يكون علق به من تراب أو مازجَ وهْجَهُ من دُكنة.

مؤلّفٌ شُجاعُ القلب، يقول ما به يتهامسون ولا يكتبون. ولكنه يقوله لا ليهدم وحسب.

هنا عدد من الهرطقات يُفَنّد. بضعةٌ من متوكآت الخريفيّين تتحطم. ليكونَ للأُمّة اللبنانية، بكليّتها هذه المرة، نورٌ متألّق حتى ليجذبُ ويهدي، وسُلّمٌ ترقاه حتى لتبلغُ به هذا النور بالذات وتؤازره هو نفسه في صنع نفسه.

لا يُبقي جورج سكاف على أكذوبة ميثاق، وانما يفتح الأعين على إرادة حياة بهيّة مئناف.

وراء الاندفاعة الاستقلالية المعاصرة، يقول، كان اكثر من ضربة مهرَة، كانت مشيئةٌ تقيم من موت. عَزْمٌ شحّ لأمد ولكنّه ما نَضَب. امة عريقة تتحفّز وتتحيّن الفرص، ويوم يؤون الأوان، وتُلهمُ كلمةَ الأمر النابعة من تاريخها العظيم ومن معتزمها الأعظم، تتحرّك فتجرف الصِغر والمتصاغرين.

الذين هم ألسنَةُ الأمّة وقادتُها في معركة البطولة لا يسقطون في حقارة من يقولون: « كان ثمة خيانتان تشدّان لبنان الى خارج نفسه: واحدة الى شرق وأُخرى الى غرب، فعالجناهما بميثاق يحدّ من حدتهما » ماذا ! حقاً كان لبنان فارغاً من لبنان، وإن هو عثر في داخله على شيء

فانما عثر على مُغروب ومُشرورق ؟ حقاً لم يكن في لبنان من يقول: « أنا لبنانيّ وكفى » ؟.

أكذوبة لاكوها ولاكوها حتى لتكاد فحواها تُظَنّ حقيقة، وعنهم أخذ الوهم، وبأيّ إجرام هذه المرة، واحدٌ ظَنّ أنه إذا نقر نقرة الطائفية كاملة (وتقضي بإيهام الناس بأن لبنان ممزّق، فعلى كلّ أن يعمل لإقامة طائفة لا وطن) استجابت للعبته شراذم متنابذةٌ متحاقدة فتسنّى له جَرّ سيده الأجنبي الى لبنان وحكّمه سيدهُ هذا برقاب القطيع. كَذّبتِ الأمة اللبنانية، الواحدةُ الاصيلة السمحةُ البادرة، حَدْسَ من أراد بها سوءاً، فلم تُلطّخ يدها ولا بمذبحة من التي كانوا قد مهدّوا لها بملعنة عبقرية.

وكان الجيش مثالَ مؤسسات الأمة حضورَ ذهن وصفاءَ وعي، وشهامةَ نظر، فتصرّف وكأنه فوق الأحداث. وهكذا سيطر على الأحداث. كان يعرف أن تصرّفه إنما هو جزء من تاريخ لبنان. هل سمعتَ أن جبلاً تزعزع ؟ هكذا الأمة اللبنانية. وكان الملأ جميعاً واثقاً بها. فإذا نقْدُ لبنان، مثلاً، في ذروة المحنة، لا يتدنّى ولا قرشاً واحداً في سوق واحد من بلد واحد.

لا ليس لبنان اثنين. انه وحدَةٌ رائعة، الجزء منها ـــ على تقاعسه احياناً ـــ يختصر الكلّ، وهو عند المُلمّات يَصدُر عن عزم الكلّ.

للذود عن لبنان، كُلّ لبنان، حَملَ السيفَ واحدٌ من بطاركته هو اكبر البطاركة، وبوجه الخليفة في بغداد رَفع الصوتَ واحدٌ من أئمته هو انبل الائمة.

« حقائقُ لبنانية » ؟ لأول مرّة أنت أمام كتاب بنّاء وَعدْل يقسمنا كما لم يقسمنا بعد احد: حفنةً ليس الاّ من نفعيين وأمّةً لبنانيةً متراصّة صَنَعتْ وتصنعُ التاريخ.

الكون والعزي

مقدمة ديوان «داود عمون»،
تشرين الثاني ١٩٦٠

ـ ١ ـ

قصائدُ، كما الكِرامِ، قليل.

اذ العظيم الذي نواجه لم يتخذ الشعر مهنةَ عُمْر.

بيد أنه، على رُغمِها، بلغَ بجّرة القلم حدّ رَمَيّ الطُرَف وجعلِ النبرة في مستوى صوتِ الغيب.

نصير حتماً الى هذا الحُكْم إن نحن توقّفنا عند قصيدتين بالذات هما نهايةُ تطوافه بالبهاء. وكذلك إن نحن ألممنا، ولو منذ قصائد الفتوّة، بابيات اشبهَ بالرُقى تنتظر ساحرَ الغد.

هنا، أوّاه ! مجالٌ لمواجهةِ مأساة الشعر، لا في الشرق وحسب وإنما في العالم جميعاً.

مهنةٌ كالقداسة ما سَجّل تاريخُها قيامَ من انصرف اليها بحنان، الى جنبها دوماً إما النثر وإما عملٌ نثري، آلمُ إذن وأدعى الى معايشة الحضيض.

دنته، غوته، العبقريّ الذي على اسم شكسبير، فاليري، وبوسعي اطالةَ السلسلة، اضطُرّوا جميعاً الى مدّ عملهم الملوكانيّ بمهنةٍ تندر فيها شعاعةُ السماء.

عبقريّون منهم، ممن فِقِهوا هولَ الخطيئة التي يقترفون، سعَوا الى الاستعاضة عما فقدوه إما بإثراء حياتهم، كغوته الذي رفعها الى قوّة قصيدة (حتى ليَقول فيه اكبر اصدقائه انه لوفرة ما برئ من الشوائب غدا لا يطاق)، وإما بكوكبة سائر فنّهم كفاليري الذي قَسَر النثر وعمَلَ الفكر على تطلّعاتٍ ولا القُبب ولا اطايبُ اللّذة.

أتساءل، وأنا في هنيهاتِ انبهار، أمام بيتٍ لداود عمّون مليءٍ نابض: هذا القلم ترى إلى اين كان انتهى لو أنه، أيام

عهده بالأرض، وقَف نقلتَهُ وشَنيمة المداد على الشعر ما عداه ؟

الشعر ؟ لَقطعةٌ هو من برق ورعد. ولكن عُضويّة هذه المرة، كالإنسان. تخفق بالحياة وتتألق بالخاطرة العجب. وهو، على السواء أيضاً، قطعةٌ معماريةٌ دونها البناية المعنّقة الابراج تكاد تميس بخصر وتتمايل وتضحك للسحاب.

الشعر من برق ورعد ؟ إنه إذن أحَدُ سكّان الكون. كالإعصار، كالزلزلة تراقص جزءاً من أرض، أو كالربيع يتّخذ الطبيعة عروساً. مع الفارق بأن الشعر اكثرُ من هؤلاء جميعاً واجبُ وجود. فكأنه، كأنه وحده، القضاء والقدر.

أن تروحَ بواسطة الكَدْح الابجديّ تزامل الله في بَرءْ الجمال، ذلك هو الشِعر.

لَكَم هو شاقٌ إذن. لكم يستدعي ان تكونَ له بكليّتك، صرفاً كما العُذرية من الحبيب الأوّل.

الشاعر الذي سنعيش في مناخه بخلت عليه الحياةُ فما

قدّرت له أن يَهب القلم الأنيق لا عُمراً ولا بضعةً من عمر. الا انه استشرف روعةَ ما كان قد اجترح لو انها فعلت.

« حلفت لو اني ارتضي الشِعرَ حرفةً.. ».

لغيري أن يتناول بالتقييم، واحداً واحداً، موضوعاتٍ له جللا كادت في العصر لا يتعرّض اليها احد. كالتعاطف بين البشر، وكالدعوة الى السلام والى تحرير الذات، وكشجب السلطان المطلق أو الرضى عنه ان هو تقيّد بالعقل.

سوى أن الخيطَ السحريّ الذي يظلُّ خليقاً بِدلّنا على الكنز هو التساؤل: واحدُ الهواة المعاندين هذا، الى اين انتهى بهوايته؟ هل بلغ من الغوص على نفسه حدّ استكشاف القعر، حد العبقرية، فمكّننا منها ولو في قصيدة، في ابيات، أو في فِلَذ من كَلِم؟

الجواب الحقّ مُعقّد.

ذلك أنه ما للمتذوقة الطيبيّ القلب من طائلِ شغل مع الرجل. أما خبراء الجمال فهو لهم نِعمِ المُعلّم.

أولئك يعرفون انه لم يصل الى السلاسة. سلاسة من

يعطي الكثير. فاستساغتُهم إياه مثلَ بَرِمَةٍ صعبة. أما هؤلاء فلهم معه حِوار لا ينتهي.

أجتزئ منه بأبيات أتصوّرها تُفصح، فوق ما تفصح، عن قِيم غير التي لها في الظاهر. لَرُبّ ذاهب يذهب الى أنه ما يكون قصد بها ذلك. فأسأله: ومَن قال ؟

الإنسان بين الخلائق إنما له وحده الكلمة، يكاد يكون، اليها مَردّ كلّ نُبْله، وبسطُ يده على الكون. منجاته هي وطريقُه الى فوق. ألوهّيته في أنه يقول. ولكن الشاعر يؤوه كمن يطلق حكماً على الثلاثة الآلاف سنة من التمدن:

« فلم يُنَجِّ القولُ أربابَه
ولا وقاهُم... »

تحذّراتنا جميعاً عبث. تحت رحمةِ الفُجاءات نحن. وكأنما من المحال التحسّبُ للغَضَبات.

« في كل يوم للردى فعلة
حاضرُها يُنسيك ماضي الفَعال
دقائقُ الدَهر تواريخُه
أبناؤها قبْض النفوس الغوال ».

ومعضلةُ الحكم؟ الفَيْصلُ الذي يقطع في الحق والبطل؟ هذا، إن له فيه كلمة. وقد لا تَبعد كثيراً عن أصدق آية وردت عليه في الانجيل: «من ثمارهم تعرفونهم». يقول:

«زال ما كنتَ تدّعيه من الحقّ
بمـــا سال من دمـــاء..»

ويهولك بفرديةِ مَن له سلطان ينمّ عنه استخدامُه ضميرَ المتكلمّ. الوسيلة في يده تبعث النار في العقل، وإلى أسنّةِ تحوّل العشب. ما همّني انتم، يكاد يقول، تعملون أم لا تعملون. أنا لها وحدي. وأنا غداً انتصر.

ولا يكتفي باستغلال الشكل. انه لينزّل اللهجة في الموقف الخطر او ينزّله هو فيها. وعهدَ كانت الشهوة تَغمر برودةَ الفكر راح يجعل برودَة الفكر تَدفق على الشهوة:

«اذا شاقني الأمر صعبَ المنال
مضيتُ ولـو أنـه قاتلـي
حديدُ قوى النفس ذو همّـة
تَضايـقُ في جسدٍ ناحـل»

وإن استَبقَ حَدْسُه عِلْمَ الاجتماع وتكشّف له ان لا طاقةَ للمرء بابداع ما لم يردفْه وسَطٌ جلل، راح من صميم نفسه يجد لنفسه الوسَطَ الجلل، ويبرّر تقاعس قومِه يقول:

« أُحبُّ بلادي علــى رُغمهــا
وان لم ينلنــي سوى عارهــا
ولستُ بأوّلِ ذي همّــــــةٍ
تصدّى الزمــانُ لإنكارهــا ».

لا يسيغه المتذّوقةُ الطيبون، قلت ؟ ولكن لِمن، إن لم يكن لهؤلاء، أطلق مثلَ هذه التحفة الصغيرة:

« يا بنــي أمّــي، اذا حضرتْ
ساعتــي والــطِبّ أسلمنــي،
إجعلــوا في الأرز مقبرتــي
وخــذوا من ثلجــه كفنــي »

إلا أنها، بالرغم مما لها من نضارة كالبلّور، يظلُّ فنها وقفاً على فِقْه الخبراء. ذلك أن البيت الأخير إنما يُذكّركَ ــ ولو أن المعنى مغاير ــ بآية لعبت هي نفسها أيضاً على اللون، على الخضرة والبياض ــ فكانت أجْمَلَ شِعْرٍ في

أقدس كتاب: « انظروا إلى زنابق الحقل.. إن سليمان في كل مجده لم يُعطَ أن يلبس كواحدة منها ».

ما أبْعَدَ الخاطرتين بعضاً عن بعض. وما اقربهما واحدة من أخرى نقاءً ورِفعةَ بثّ. هي الشّبابة المخلوقة تجتمع الى النغم الخالق.

ولكنه ولا في هذا هو.

لربما كان على الأخصّ في تركيب كلاميّ عَجَب لا يبلغ اليه دوماً وإنما دوماً اليه تطلّع : الشعرُ عنده عَمَلٌ شاق، نضال بعرق ودم، وخُصوصاً باصطكاك سيوف.

توحُّدُ النضال مع الشعر ؟ إنها منذ أُلوف السنين مُعضِلةُ الفنّ.

سِحْرُ القول كلٌّ أحَد: حروفُه والمعنى وعلائقُه بالسوى. كُلٌّ شريطةَ ان يجيء مُفعماً بالمعركة. ولا معركةَ بدون سِنان وصدر يَغرز فيه. فكأنما للنحر فضلٌ على الرمح اذ بدونه لا مجالَ لطعنة وكأنما للرمح تكّرم على النحر اذ لولاه لا قِبَل بتذوّقِ موت.

هذا الذي يجد في أجدادنا أنهم « علّموا فنّ نظم النحر باللدن » انما عرف ان يرِدَ ماءَ القصيدة من أروع نبعة. من الضربة التي تهب الموت بغيةَ الحصول على حياة أطرفَ وأشرف.

لا ليس هذا المستوى للمتذوّق الطيب القلب. إنه لأمثال حافظ الذي كان يسمّي داود « ربّ القريض » ويُخاطبه بإجلال:

« اذا قلتَ أصغت ملوكُ الكلام.. ».

وبعد، فمأملي من ذيوع بضعِ مئةِ لفظة من هذا الديوان أن تتحقّق كلمة أخرى، هي أيضاً لحافظ في داود:

« اذا ثرتَ ماجت هضابُ الشآم.. ».

الى تتمة ولا أمجد.

لربَّ شطرٍ من بيت هو بمعركة أو بفَتْح عالَم.

مقدمة ديوان هند سلامة،
تشرين الثاني ١٩٦٠

ـ ٢ ـ

عزيزتي هند

طُرَف صغيرة على الحبّ، كيف كيف تنسم عليَّ دون أن تتشبّث بي ؟.

وبالأولى متى كانت بقلمك. ذلك الذي اتصوّره، ولو في عصر الريشة التي من لدائن ومعدن، لا يزال عندك غزّارة وُلدت في بعض غياضنا في الجبل، حتى اذا غُطّتْ بالمداد تذكّرتْ عهدها بماء بلوّري، وهبّات صَبا، وباهتزاز ورنين، فعادتْ، مرَّة اخرى، تعيش وتعدي الخواطر بالعيش.

ذلك ما عنّ على بالي أن أقوله لك ــ لك وحدك ! ــ فور وقوعي على ممنّعات متسربلات العُري بالحرير، سيدعونهن ديواناً بجلد وورق وقصائد.

اشعاركِ هنا تردّنا الى الفنّ في أول طَلْعِه، يوم كان بعدُ حياةً لا إعمالَ أُصول.

هذه التنهداتُ أو الضحكاتُ الغنوج، أو التعريجات على بستان الحكمة إن شئتِ، تقولُ لي: لا تنظُرْ مني الى لعب أبجديّ. أنا، أنا هنا، المرأة. هنيهاتٌ من جسد وروح. استمتعْ وكفى.

سواءً حملتِ على المعرفة تجدين فيها حرماناً، وتكونين قد ابيت الا « إدراك الحقيقة الى حد اللاإدراك » أم غرقت في الربيع على أن « الغد وتر »، أم بكيتِ بلبلاً أفلت، أم تحدثتِ، وانت تمنحين نفسك للطبيعة، عن نفسك هذه « التي تخضلّ »، متجرئة على القول أنك تأبين أن يكون « غيرك نوّارَها »، الى اضاميم واضاميم ــ ولمَ لا اسميّها هكذا ما دامت التي تتكلم هي أنت، بائعةَ الزهر تنادي عليه في حقل العقول لا الأُناس ــ فانّكِ في جميع الحالات

تظلّين العاشقة التي لا يخنقها الفنّ، العاشقة الدائمة تُطلّ من بين الكلِم اطلالتَها من وراء غِلالة.

عاشقةُ انسان ذي ذراعٍ وصدرٍ عنيف ام عاشقةُ مُطْلق؟

كلتاهما تصِحّ.

ولقد شهدكِ لبنان، ذات يوم، تأبين — وأنتِ الصبيّة الفارعة والأُنوثة الضاجّة — الا مقارعةَ الرجال تنازعينهم السبقَ على اجتياز البحر طوالَ الشاطئ الفينيقيّ الأنيق.

الى زمنٍ أساطيرنا ترقى العلاقة بين الخواطر الفريدة وجنيّاتِ البحر والعاشقاتِ اللواتي يأسرن البَطل ويشددنه سنواتٍ الى خدمتهن.

يُعجبني فيكِ إرادةٌ ترمي القدر بنظرة شزراء. وحتى عندما تصرعك صناعةُ القلم تظّلين لها. فكأن الشاعرة التي في ثوبك خادمةُ هيكلٍ وثني يقطّعونها إرْباً إرْباً ان هي خانت العمل المقدّس، ولكنها تأبى الا أن تبقى معاً للهيكل وللتطلع الى اللعِب بالنار.

كلما قيل لي أنكِ هجرتِ الشعر وانخرطتِ في مهنة اكثر ما يكون نثرية، أُكذّبهم. ذلك أن التي تضفر الكلمات ياسميناً وفُلاًّ انما توحّدتْ فيك بالتي تمُدّ الى الحياة ذراعين ولا أروع.

أُكتبي. شعراً أُكتبي. بساطَةُ بثّكِ ليست تقصيراً. إنها ردّ الغزل الى يوم قال: « وحدي، أنا شعر الحبّ، يكفي أن أكون ــ كما الله خلق ــ ليكون الفنّ ».

اغنية الجراح والرماح

مقدمة « شعر الأخطل الصغير
١٩٦١

كما ولا بِقُمقم يمكن حبسُ الجِنّ ــ الا إن تشأ توهماً أو تخيّلاً متعابثاً ــ كذلك ولا بتعريف، من مثل الأخطل الصغير أو شاعر الغزل غير منازع أو أغنية الجراح والرّماح، يمكن حصرُ الأنامل الجلل التي راحت، في حقبة من عمر الشرق، تخط غَزلاً عجَباً، وبالغزل هذا تشدّ، وعلى حُبّ الجمال توحّد الملايين.

طوال بعضٍ مِن مئة، كان كلُّ عاشق، كلّ متطلّع إلى حسن، كلُّ غامسٍ قلماً بعطر يقول قلبه الطريف وعيناه في روائع هذا الشّاعر.

شخصيًّا أحببتُه ما كففت، رغم ما تقوّلوه حول خطبة لفظتها ذات ليلة ونحن على المنبر الواحد، خضضتُ بها الشّعر قديمَه والمعاصر، فزعموني تعمّدتُها أذيّةً له، وفهمها هو هكذا بضغط من الجمهور، حتّى اذا ردّوه الى الكلام كَرّةً أخرى وهاجمني ببيتين له قديمين، رحتُ أصفّق لهما كما ولا أحد، وفي بالي الخَلِيّ أننا، هو والبيتين وأنا، أعداء حقاً ولكن أعداءُ مَن يجهلون.

وانقضى عمر.

وهذا نحن نكذّب اللّيلةَ المباعدة : أنا أدعو الى تكريمه وهو يكلّفني التقديمَ لديوانه.

ما أروعَ الحقيقة تُفصِح وحدَها عن مكنون، تَفضَحُ نفسها فتَفضحُ طيبَ الطّيوب.

* * *

دَفَعَ اليّ الديوان وكأنّه وصيّة.

إنّ الذي قضى عمرَه خادماً للحُسن هو هو الذي تجدُه هنا يأبى على القصيدة أن تُنفض منها اليد : يلاحقها،

الى المطبعة يلاحق، وغداً — مد الله بعمره — متى راح يُعِدّ لطبعة غيرِ هذه تُشهد قلمه الأنيق يخلع على اللفظة حُبًّا جديداً فيخلقها خلقاً جديداً. ما هَمَّه الناس نَزَّلهم في الشّعر كما الذّهب في غِرار السّيف، وانّما هَمَّه هذا التّنزيل. يحوّر أبداً وأبداً يُدسّ السِّحر، فكأنْ لا لُبانَةَ له سوى رضى واحدة : ألنّزوعِ الى الكمال.

في ذمّة الجمالِ جهدُه المذيب. يَهدم في سبيل بُنيانٍ أغنى. يُميت الحَبَّةَ من أجلِ رؤيتها سُنبلةً مُثقلةً بالجَنْي الذّهب.

أتصوّره يبكي لِوأد ما يَئِد من بَنات أفكار. بدموع من نارٍ يبكي. تماماً كما عمرُ بن الخطّاب ليلَة ودَّع وَثَنَه إلى الإله الحقّ.

وبعدَ إمراره القلمَ على المُسودة؟ قل : أصبح الجمالُ أجمل، ومَضى الشّعرُ أبعد صوبَ صيرورته دُنيا. دنيا مِن زهرٍ وقولةِ حَقّ.

* * *

ذوّاقَةُ طُرَف، يتغنّى لا يكفّ بأيّام منبر تَسلطن فيها

شعرُ الأخطل الصّغير، قال لنا : « حتى قصيدةُ الغزل كانت لا تُفلت من ظرفها ».

بلى كان المنبر ــ لا ردّ الله عهده ــ لكبارِ شُعرائنا والنّاثرين بمثابة دار النّشر. مجالٌ هو لِيوم عِزّ، ما سواه لهم حافز.

ما عمل الشّاعر؟

فتّت الجِنزير.

على أنّ الديوان، رغم ما عولج به، بقي، سبحان الفنّ، هو هو ديوان الأخطل الصغير. تتصفّحه خَطْفاً فتخالك لا على المنبر وانّما متوغّلاً في ممرّ الياسمين : قببٍ مكوكبة بالزّهر، بالعناقيد تُعلّل بانقطاف، بالكؤوس تمدّ بها أيدٍ من الغيب لا تُرى. عُرسٌ للهنيهة. نَفْس باعدت في ذاتها تكشف عن كنز الوجود، بحكمة مرّة ومراراً بغرابات ما لها عَدّ، حتّى لَيُفاجأ ذوّاقةُ الطُّرف فيهتف : شعر الشّاعر هو هنا غيرُ ما هو. إنّه لعمري « أزليّ الميلاد ».

ذلك ــ ويعرفها خبراءُ الجمال ــ أنَّ سِلْكا خفيًّا وحّد هذا الديوان الجَمّ، وقُلِ هذه الباقَة من نجوم العَشِيّ، منذُ هو في وجدان صاحبه فُرادى زهْر أو ثُنَى حُمَمَ، الى علوقِه

بالأذهان قصائدَ ومقطّعات، الى انسلاكِه ــ كما بيَد لأّأل ــ عِقداً تتشهّاه أعناقُ الحسان.

ولكن كيف، وأنت تتناول الحادثةَ، كيف القدرة على تحويلها منجمَ مَرمر أو يَشْب منه تُقصّب الحجارة لبناء القصر؟ ويكون القصر حياةَ الشّاعر صَنَعها وتناهى فاذا هي تَصنعُه لا تتناهى.

هنا السّرّ في فنّ الأخطل الصغير، وقل في مأساته التي لا تُضارع.

لِنُزِح بعضاً من ستار.

منذ الشّاعر برعمُ ورْد تتطلّع اليه الأعينُ تَسكر بلونٍ وشذا، أدرك، مُستبقاً الأملَ، انّه سيكون واحدَ الوُحَداء في الغزل. «أأُعمَل لشعر الحبّ دُون سواه؟ ساءل نفسه، والمنبر؟ والحادثةُ التي تعوّد الشّرق أن لا يجتمع الاّ عليها؟» ألشّرق لا حاجةَ به إلى الشّعراء الا في اليوم الفاجِع. وحدَهم آنئذٍ أصحابُ التّاج. وأمّا في سائر عمرهم فَهَمَل.

أتصوّر الذي سيصبح الأخطل الصغير بَكى لوقوفه على مأساة الشعر في الشرق. بكى ولكن ما جبن. بكلتا يديه

لملم أشتاتَ الأمل. « سأكون، قال، سأكون غَزِلاً، ولو في المآتم ».

وأعطاه الله.

مِن تخليده شوقي وقد طَرِبت له الحجار في مِصر، الى انعاشه أزهارَ الزهاوي وقد تفلسف على الوجود، من دحرجته النهر وكأنّه خيطُ حُلم ينحلّ، الى تجليله الروابي بجِفان الكَرْم وكأنّها خصَل الشَعر على كتفي صبيّة، من استنفار الهمم يهيب بترابات فلسطين أن تستيقظ وتُقلق السيوف في الأغماد، الى تحسّسه الليلُ يُنسدَل على الوجود كأنّما هو ذراع العاشق تلفّ الأمل وغمّةِ القلب والكون، الى طيّبات وطيّبات من سوانحَ تحرّك الياسمين وتكبّ الشذا في العقول، انّما تجده هو هو مُوجَعَ القلب أبداً وأبداً متغزّلا. للنبع عنده، كما للمرأة، « مِعصم »، وللجهاد « ثَغرٌ وجيد »، وللقبر، لهذا نفسه، « إشفاقٌ من عَطْف عَزُول ».

يُحَبّ الأخطل الصغير كما يُحَبّ الحبّ.

وما هو منه؟ انه الزهرة من الشذا. ليلة مولده، يقول، وُلد الهوى ومعاً على اللوح الواحد سيحملان.

لا، ولقد وفى هذا بذاك، وتعكس، حتّى ليبقيان ما

بَقِيَ الجمال ومتعبِّدٌ لأَشياءِ الجمال.

* * *

قبل أن يكون للشرق أداةٌ سياسيّة تَجمع، كان الشعرُ تلك الأداة. على أنّها مع الأخطل الصغير بلغت مبلغَها العَليّ العظيم. فإن وَهَنَت وشائجُ بين نيل ورافدين، أو تقطّعت أنفاسُ صَبا بين نجدٍ وأطلس، تألّقت بيروتُ بمفاتنِ شعر، فأتلَفَ شَرْقٌ وشَرِقَتْ بدموع الفرح عواصم.

الأقلامُ جميعاً عَرفت ليالِيَ وَجع، فيها « تراخى الأَمر »، حاشا هذا الّذي ما خَطّ الاّ وفاء وما قَطَرَ مِدادُه الاّ حُبّا.

وللبنان كان الأخطل الصغير سَفيراً قبل العَهْد بِبعوث تَنطلق.

ذاتَ يوم ــ وكيف أنسى آخَرَ في بغداد؟ ــ كَبّروا للبنان في القاهرة كما للذي لا تكبيرة الاّ له. كان ذلك بفضل بيت من شعر له أو قوافٍ مرنان دونها انعطاف الحور على الحَور.

وسِرٌّ آخر أُلْقِيت مقاليدُه الى هذا الشاعر : الطلاوة. لا ولا مرّة، كما هنا، جاز فَهْمُ الكلمة بمعناها المُطلق، ذاك الذي اليه أريدت أَوَّلَ ما انفرجت عنها شَفَتا متكلِّم.

الطلاوة؟ ألا لِتُفْهَمنَّ بأناقتها الرضيّة الخَفَر. تجدها هنا نُزّلت في السطر يَتناغمُ معها حتّى التوحُد، حتّى الغَرابة. لكأنّك حِيال تعاريج الكتابة القديمة رَصَّعت قلادةً من ذهب إبريز. ما ثَمَّةَ نَقْشٌ بانتظار ضبط وانّما ضَرْبٌ كما الدينار أخرجته اليد الصَنَاع كُلاً متنفّساً بالتمام والرونق. كلمةٌ بِنتُ الفُجاءة في بيتٍ رُصِف ابناً لِلعجب. شمسٌ تبلّجت على غير ميعاد فوق قِمّة من لبنان.

* * *

هذه الكأس، التي فيها تآخى نبيذ بابل وبلّور صيدون وصُنْعٌ مِن أثينا يذكّر بإزميل فيدياس، هذه الكأس ما انفكّت منذ نصف قرن تُدار على نَدامى هُم شعوبٌ لا أفراد. اليها هنا بالذات، مُدَّ قلبَك قبْل اليد. لَيُخيّل اليك لأوّل وَهلة أنّها تبدّلت. لا تُصدّق. أمِرّ العين متعبّدةً على الورقات، بجُماعِ نظرك تَذوّق ديواناً بات جديدَ البهاء. انّك لتجدُ المَذاق نَفسَهُ، ذاك الذي له اهتززتَ وأنت فتًى طريٌّ عُمْر. كوثَرٌ مِن جنّة هو ومرّة نِكتارٌ من أُولمب. وتسائل النفس : تراه لِنغمةٍ وُتِّرت فطَرُفَت أم لبهاء رُصِفَ أدقّ فَغَنِيَ، انتقل النصّ من مخاطبة سَمْع الى مناجاة بَصَر؟ ما تَدري ما تدري. كلّ ما هناك أنّ السِحر كان ويبقى موضوعَ شَكّ.

وقد تأخذ على اللألاء هَنات هيّنات، تَنزّلات عن مستوى يكاد إن استمرّ يُتعب. قل : انْه عملٌ تَطلّبَهُ الفنّ — أو شاءه القدر! — لا لشيء الّا لتهتف : بلى هذا الشِعر هو حقاً في الوجود، جسدٌ لعمري جسد، لا بالتوهُّم ولا في الغيب.

سرّ یک نظر



المجلة التربوية العدد الثاني ١٩٨١

قصّر، لعمري، تجاهه الكلّ، الا الشهرة. ولَيُجرم بحقّه
ــ بحق لبنان إذن ــ اثنان : من يروح، لمحض ما ان
تعرّف اليه، يَهِم نفسه بأنه عرفه، فيكتب عنه بقلم التلميذ
يَحسد المعلم، ومن يتوسّله، كأنما الأمر يسير، أطروحةً
ليست كتاب عمر. لَكَم يسهل أن تُسَدَّدَ رصاصةُ خلاص
الى كل ريشة جَرّت حبرها، غير مُستصعِبة، على كدسة
من ورق تُريدها قال.. سِفْراً على جبران.

أنا، وأعترف بها، أتهيّب.

أسئلةٌ ثلاثة تردُّني كمن في حضرة خَيلانةٍ من اللواتي

يَظهرن عليك أشبه برصَد ثم يحتجبن ويتركنَك في الدَهش :

ــ مَن جبران اليفاع الدائم، ذاك الذي قرأه ــ بل التهمَهُ ــ في شِرّة صباهم، كل الفتيان من أبناء شرقنا، فأصبحوا، حين كتبوا، إمّا جبرانيين واما لا جبرانيين، لِيغدُوَ نصفُ قرن برمتّه مغموراً بشتاءات من بلدة بشرّي عاصفةٍ بالريح، بصقيع الثلج والصاعقة، أو مسكوناً بشجونٍ ثائرٍ على القُبح أو عاشقٍ تكسّر جناحاه؟

ــ مَن جبران « النبيّ » ــ وقُلِ الحكمة ــ ذاك الذي هو قلَقُ الملايين من الأميركيين، مِمّن يقرأون منه في معابدهم ولا قراءَتهم من الكتاب المقدّس، فيغدو اسمُه بين كل الأسماء، في أية دُربةٍ عقليّة أُغذّ، أشهرَ اسم غيرِ منازَع في أمة ما هي ثانيةً بين اللواتي بيدهنّ مصائر البشر؟

ــ مَن جبران القلم الانكليزي الذي أضفى على لغة تشوسير وكيتس رعشةً لا عهد للانكليزية بها، جاءت، وحَتماً بشكل مغاير، بحَجم التي كان أضفاها عليها شكسبير؟

ليس في هذه العُجالة المقتضبة فَيحٌ للردّ على الأسئلة

الثلاثة. وإن هي، هذه العُجالة المقتضبة، إلّا وخْزٌ في خاصرة جماعَتَين : من كتبوا عن جبران وكأنّه هُم، ومن نشروا رسائلَ حميمة متبادَلَة بين عاديين وبينَه وهو بعدُ عاديّ، كتابات خاملةً، ولو سئل جبران فيها : « هل هي لنشر؟ » لضحك ضحكة آنشتاين يسألونه نشر مساعداته حفيدةً له بنتَ ثمان، مثلاً، على كتابة فرض في الحساب ستنال عليه علامةً أقرب إلى الصفر..

لئن تفرّغ يوماً خبيرٌ بِسِنّ اليفاع، وبالجمال القَلَمي خاصةً، وبالقلب المُريدِ ذاته خافقاً مع نبضات قلب الكون، للردّ على الأسئلة الثلاثة، وكتب بانكليزية تفوق سذاجةً ونضارةَ بَثّ إنكليزيةَ « النبي »، فقد يكون لنا أن نُعطَى ــ ويا لهناءتنا آنئذٍ ــ فكرةً عن بعضِ ما جبران، عظيمِنا الذي كان على الطريق الى جعل اسم لبنان، بسبب اسمه هو، أشهرَ ما يَنزِل في كلّ الكُتُب.

مِن صَناعَةِ السَّيف

مقدمة على « تاريخ الجيش
اللبناني » للعميد سامي ريحانا
تعريب النقيب انطوان نجيم
١٩٩٠

تاريخٌ لجيش لبنان، في الحِقْبة المعاصرة ؟ تَلفظ الكلمة فيَرتسم، على شَفة مَن بالُهم في بعضِ خارج، خارجٍ بعيد، مِثْلُ هذا السؤال: « وهل وراء جيش لبنان، في الحقبة المعاصرة » « فردان » مثلاً ؟ أو هل وراءَهُ « الانزال في النورمندي » ؟

مع أن...

هذا العمل، الذي منحه العميد سامي ريحانا بضعةً من شبابه، يجيئك بشأن موضوعه ما يردُّكَ متهيّباً. سؤالك المزدوج لا تعود الى مثله.

لا ليس على عسكريّتنا وحسب أن تهتدي بهدْي هذا السِفر. ألا فَلْيَفعَلْها كذلك كلُّ طلاّبنا، مهما بعُدت اهتماماتُهم عن الشأن العسكري. كذلك فَلْيفعل تلامذتُنا في الأواخر من سِني التحصيل.

* * *

ثلاثٌ تخرج بها من هذا التحرّي الجَلل:

ــ الأولى: جيشُك ان هو الاّ سيفُك. تَسلُّه، هو وحدَه لحمايتك عندما يتهدَّد خطر. وما أنت مِن دونه ؟ كلُّ شيء إلا أنت. ولكنك، بالمقابل، تخرج، من هذا الكتاب، وقد بِتَّ تعرف أن الدولة اذا وَهُنت تحتَّم أن يوهَن الجيش. فلا معركة « عَلَمين » إن لم يكُن، في لندن، وراء عبقري العسكرية وجنودِه، إلهٌ صغير اسمُه تشرشل. مِنْ هنا الحُكْم بأن هذا الكتاب، الذي لا على السياسة، هو أَهَمُّ ما كُتب عندنا على السياسة.

الثانية: الجيش هو للأُمّة ما هُوَ للمرأة رجلُها. امرأةٌ تُرك رجلُها يُصفع على مرأىً منها تغدو سبيّةً لِفراش الصافع. أما والحالة هي هذه، فيُصبح واجبُك أن تقرّب قُربانَك لاثنين: الله وجيشك.

الثالثة، وهي الأهم: أن جيش لبنان، في عهده المعاصر

ما يزال محتفظاً، ولو عن بعد، سِمات جيشنا في عَهْدي صيدون وصور. حقاً ؟ مِن الاختصاصيين مَن قرأ هذا الكتاب على حِقبة من تاريخ جيشنا فتوقَّف عند المؤلف المؤرِّخ فوجده رَجُلَ تشدّد في تحرّي صِحَّة الأحداث. ومنهم من توقّف عنده كاستراتيجيّ فوجده ابنَ بجدتها. توقّفتُ انا عنده متطلّعاً الى الكشف عن روح عسكريّتنا. هو لا يُلمح بالاسم الى « معركة صور » في وجه الاسكندر. ولا بالاسم كذلك إلى « معركة صيدون » في وجه ارتكزرسس الثالث، تَينِكَ المعركتين اللتين قالتا إنّ شعبنا ما كان بَطلاً، كان البطولة. ولا كلمةً عن ذاك الماضي، آونة تاريخنا هو التاريخ ! ومع هذا تستشفّ، من بين تغيّب للكلمات وحضور، أنّ جنديّنا اليوم ما يزال ذاك، وإن خِبرتنا اليوم بملاعبة الموت ما تزال تلك.

« معركة صور »، في وجه الاسكندر، ما تراها كانت ؟ لا الّا برهنةً، من عسكريّة شعارها « صُور لا تغلب »، على أن هذا الشعار هو هو صور. واستمرّت على هذا ثمانية أشهر. حتى إذا رأت هذه العسكريّةُ أن الذودَ عن الحياة ثمنُه الموت لا أقلّ ما بَخِلت. وماتت صور ؟ من قال ؟ ولقد تركت للتاريخ أن يعرف أن الفاتح، الذي كان ينهي

معركته بأيام معدودة أو بيوم، إنما، عندها وحدها، تمرَّغ سبعة أشهر. هزيمةٌ بحجم انتصار، تعوّدوا أن يقولوا ؟ لا، وانما محضُ انتصار بحجم كرامة.

و« معركة صيدون »، في وجه ارتكزرسس الثاني، تلك التي قادتها الصبيّةُ عَشتَريم، ما تُرى كانت ؟ إن هي الا قولة لبنت تُراث عسكريّ: « جئتم بي متأخّرين. أرجّح أنّه لن يتاح لي جعلُكم تعيشون الحياة. لكنكم معي، أكيداً، ستعيشون كرامةَ الموت ». وأحرقت عشتريم شيوخَ المدينة والأطفال، أحرقت روائعَ صيدون، تلك التي كانت، على قول بيار أوباك، باريس القدم، قصوراً ومعابدَ ودورَ رُقيّ، لكي لا يبقى، للمقاتلين الذين تقود، ولا وراء يلتفتون اليه، يبقى لهم فقط أمام. يموتون ؟ يحيَون ؟ سِيّان. سيتركون، بعدهم، للدنيا هذه المرّة، أجملَ أرث تأخذُه عنهم ألسِنَةُ الفلاسفة: « وُجدت الحياة لتفتديَ كرامةَ الحياة ».

* * *

تقرأ تاريخ العميد الرُكن سامي ريحانا، فتخرُج بهذا ؟ لَربَّما. لكنك، أكيداً، تخرج بأنك على الطريق إلى هذا.

فهرست الكتاب

اجـُراس الياســمين

الطبعـة الاولى ١٩٧١
الطبعـة الثانيـة ١٩٩١

أكاسيا...

لهذه الأكاسيا
أنا أكتبْ

عروسةٌ ! فمَن،
مَنْ يدَها يطلب ؟ ...

لا أنا، لا الربيع،
لا الصدى اليكذُب

أشمخُ جبهةً
تلك التي تعذُبْ

تنصُب قنطراتِ
زهرِها ... تنصُب ...

أكاسيا، دعيك
منه، مَن يَخطب..

بكِ، بضمّةٍ،
غداً أنا أهرب

وليلحقوا بنا
الصبحُ، الدّجى، الأشهُب ...

نكون صرتِ لي
وصرتُ صُبّي ...صُب...

أطيبُ منك أيٌّ
الخمر، أيٌّ الحب ؟

أكاسيا، ولا
أزلْ أنا أكتب ...

شتاء

أنا وصدىً عاصفٌ والمطَرْ
على شَعَري .. وانتحر، يا وترْ

لِتَبقى وراء الجِهات تئنُّ
وتبعثُ لي بِجِهاتٍ أُخَر ...

أسائلني : هل يمرّ خيالي
كما خلف مُنشقّ غيمٍ قمر ؟

بمَن ؟ بالدروب محاها شرودي،
بتمزيقيَ الضجرَ المنتظرْ

أعيش أنا لغدٍ، لا عليَّ ..
ومَن أنا إنْ لم أعِش في خطر ؟

يقولون لي : تسكنُ الريحَ .. خابوا !
خططتُ انا وسكنت الصُوَر

الا انهمري، يا شآبيبُ ... شُدّي
اليّ الغمامَ وشدّي الحجر

ربيعٌ ؟ ... الا فليكفَّ الربيع،
انا قصفةُ الرعد، مَزْقُ الشرر

انا سِرُّهُ زَهَرُ اللوز، لكن
على الثغر فتّح لا في الشجر

وفتّح خاطرةً ... دفْعَ بابٍ
الى المنتهى .. غُربةً في القدر ..

ويا مطرُ، انزِل وأشردَ بعد.
وأشقى... ويَبْقى عليك أثر

بلى، وتبرّجْنَ لي، يا ثواني،
وكنّ كأحلى بنات الغَجَر.

سقوط الشمس

هذا الغروبُ لَمْ يَمُرَّ
بي، ولم يرمِ الذهبْ ...

ألِسوايَ كان ؟ ليتَ
ليتَ ! ... ولْيُقطَفْ عِنَب ..

ويُعتصَرْ ... وهو غداً
رقصٌ وكأسٌ وحبَب ...

يطيبُ، يا غروبُ، أنْ
أُحَبَّ أو غيري يُحَبّ

أعطِ شجيراتِك للناسِ ...
ارمِها للطيرِ حَب ...

لوِّنْ بكَ السماءَ .. والأُفْقَ ..
وأعرافَ القُبَب

وغنِّ، إنْ شئتَ، ورُدَّ
الريحَ غصّاتِ قصَب

لذيذٌ الأخضرُ قبلَ
الليلِ والدُّنيا رِيَب

تقولُها تنزَّلَتْ
عذراءَ عن راحةِ رَب

وهذه الشمسُ التي
تغيبُ .. تَغوى .. تُغْتَصَب ..

رمّانةٌ تفلّجتْ
أو قلبُ عذراءَ انعطب !

غروبُ، ضِعْ بي، بكَ ضِعْتُ ..
وتألقّتُ عجَب !

وحدَكَ، يا غروبُ، مِن
عندي ... ومَن بَعدُ جَلَب ...

نقش على الريح

نَقّشٌ على الريحِ غِوىً، هديلْ ...
لِمَ الوجودُ مثلُها جميل ؟

أحبُّها الطبيعَه انتهت
اليَّ، والكثيرُ من قليل ...

الحجرُ الناهضُ قامةٌ
تقولُها من لَذَّةٍ تميل

والتوتةُ الخضراءُ ذُبِّحت
بنُقَطٍ وبدمٍ يسيل

كأنني أَقطِفُ خيرَها
بالعينِ، جيلَ ثمرٍ وجيل

أمسِ تلطّختْ بأحمرٍ
أصابعي ... اليومَ ارتوى الغليل ...

لن أغزوَ الشجرةَ العُلى،
حسبي جِوارُ ظِلِّها الظليل ...

والريحُ تلهو بي، بجبهتي،
بشَعْرِيَ المشعَّثِ الأثيل

أقولُ للصباحِ : لُفَّني ...
لي مثلَك التطلّعُ النبيل

حَطٌّ يدي عليكَ يُقلِقُ
الشُعاعَ، يُغريهِ بمستحيل ...

أنا وهذا الحُسْنُ في الطبيعة
التقينا زمناً طويل

أَعطَى وأَعطيتُ ... وشاعراً
صار ... وصِرتُ النَسَم العليل ! ..

سِيَاجُ الوَرد

سياجُنا هَيمانٌ. يا بَرْدُ
غُلّ به أو يشعَلَ الوردُ

إقرِسْ. لذيذٌ أنت عند الضحى
والوردُ أزرارٌ ولا عدّ

قد أيقظتْني ثم لَمْ تنتظر
عصفورةٌ جناحُها نَدّ

كلُّ صباحٍ تتغاوى هنا ...
والوردُ للأوّاهِ ينهدّ ...

أُحبها والنُقَطُ افتوتنت
حمراءَ بعد الصوت تسوَدُّ

يا ليتَها حَطّت على خاطري
خطفاً وبعدُ ارتحلَتْ بعد ...

أُحبّها صدّاحةً طلْقةً
كأنّها الشِعرُ الذي أشدو

ويهزَجُ السياجُ، يمضي على
الارجاء بالعِطر ... ويرتدّ ...

وليلكيٌّ فوقُ من شُرفةٍ
لاح .. فما طرْفي .. وما السُّهد ؟ ..

لو أنا لم أنظر لما أفلَتَ
الزمانُ مني وانتهى البَعْد

وقد أطلّت مَن على خصرِها
غنّى نِطاقُ البُرْد والبُرْد

قِطعةُ شمسٍ قال ... فاسمعْ بها
ولا تُقرِّب ... عَلَّها وَعْد ...

هذا السياج الساكني وزْدُهُ
أجملُ منه شَعْرُها الجَعْد.

الحبّ والقلم والريح...

تمرُّ على جبهتي نسمةٌ
لستُ أعرِفُ من أينْ

أمِن تحت لوزتنا في
الكروم التوَتْ غُصُناً لَيْن ؟

وخُذْ بالبراعم ... مَن
ينفرطن ... ومن يُشتهَين

ومِن أين ؟ مِن مُعْرِش
الياسمينةِ ظَلَّلَتِ اثنين

تؤوهُ له ويؤوهُ ...
وعينٌ تهاوت على عين ...

تمنّيتُ، يا نسمتي، لو
تكونين ذاتَ الجناحين

هنا تنزِلين بماءٍ
وتَروَين تروين تروين ...

وان عُدتِ عدتِ جَناحُكِ
يقطر باللؤلؤ الزين.

وتسكن باليَ تلك
الجِرارُ اجتمعن على عين ...

وأبرُد من ذكرهنَّ
وأشقى ... اصدقيني أتشقَين ؟ ...

ويا نسمتي، أنت شرطُ
الجمال انسِمي أو أنا هَيِّن

وما قلمٌ ليس لُعْبَ
الرياح كما نقطةُ الغين

قوامٌ تلوَّى ... فيا أنجُماً
في البعيد، تلوّين ...

و « مِن أين » ؟ ويكِ انسمي بالسؤالِ
السؤالُ « الى اين » ؟

نهد

كَتَبْتُهُ، كأنّه في القصائدْ،
كفُّ جنيّةٍ عشيقةِ ماردْ،

نهرَنا ... فاندفاعةُ الموج فيه
من صِباها ومن عُتُوِّ الناهد

يا شريطَ اللجَينَ،لُفَّ خيالي
أو أنا منكرٌ جمالَكَ جاحد

موجةٌ لا تشيل بي وتغالي
لم تكن بعدُ في الجَمال الصاعد

أنا بي ضاعتِ الطبيعة، إنْ ضاعت ...
فلِمْ أنت عن شروديَ شارد ؟

نهرَنا فوقُ، في تلوّيك بالسهل،
اكتُبِ السهلَ خُضرةً وروافد ...

رُدَّه موسِماً ولا موسِمُ العقل
وشبِّكْ خواطراً بسواعد

ما تُرى أجملُ ؟ ... الهواجسُ في البال
أمِ الأزهُرُ الزواهي الزواهد ؟

أم هوى مَن يقول للصفحة البيضاء :
غنّي، انشكّي نجوماً فرائد

فكأنْ أنتِ قُبّةُ الفلَك انهارت
على الدِملَج المرنّ المراود ؟ ...

قارئي، خلِّ ... ما الجوابُ وما أنت ؟
كن ِ النهرَ ... وحدَهُ النهرُ خالد.

شلال

كأنها أفتى بها القلمْ ...
رَسَمها ... فعطّر النَسمْ ...

تلألُنا ... ألا امرحي بها،
يا عينُ، من رأسٍ الى قدم

الليلكيُّ لونُها اذا
لم تشتعِلْ بالاخضر القِمم

او بعضُ ما لا اسمَ له وما
رنّ مِن الكُوب اذا انثلم

عينٌ، اشربي منها .. اشربي النقا ..
وإنْ مللتِ فاشربي الشمم

تلالُنا قد رَبِيَتْ على
العطاء، واحلولتْ من الكرَم

رفٌّ العصافير رنا لها ...
همَّت بأن تصيره ... وهم ..

فهْيَ هنا اجنِحةٌ تُرى
وها هناك أزهُرٌ تُشَم

وفي المساء، غِبّ منتهى
الشمس، ومسْحِ الافق بالظُلَم

إنْ وقَعَتْ سكرى تلالُنا ...
بزَهَر الليمون فلتَلَم ...

إلى النسيم

لا أنا ... أنتَ احمِلْهما وامضِ
عَينيَّ وسْط الشجر الغضّْ

يا نسمًا مر على شَعَري
فهدّني بعضاً على بعض

وقال أنْ في الارض لي سَفرٌ ..
كيف وبي قد سافرت ارضي ؟

لِمرّ نسمةٍ، لِلَفْحَتِها
خدّي بذاك الأَرج المحض

كأنها من قُبَلٍ وهوىً
ومن ضِياء الناهد البضّ

اسأَلُها لِمْ يا تُرى خطرت
من صوب عمق البحر والعرض ؟

أُريدُها ولا ... فيا شمَمي
بلّغْ ـــ ولكن رافضاً ـــ رفضي

أنا وهذا الكون غصنُ نقًا..
حُطّي، عصافيرُ، أو ارفَضّي

وسوف نَروي قصّةً عَلِقت
ما بين فتح العين والغمض

كدمعةٍ تمنّعتْ فشَفت
او آهةٍ الى الهَنا تُفضي

لَذَّ الذي شَفّ ... فكن نسَماً
يلوّع الوجودَ ... او فامضِ ...

بلادي

بلادي، دعوني على
أجنُحِ الطيرِ أبني بلادي

على جبهةِ الشمسِ أرصُفُ
أرصُفُ سهلاً ووادي

أشكُّ العمائرَ، بعضاً
هواتفَ، بعضاً شوادي

وأُقلِقُ منها جِباهَ
النسورِ، وغيث الغوادي

بلادي، دعوني أشدُّ
ثَراها الى الحُلْمِ هادي

يعلّمني الحلمُ أنْ ليس
إلّا التمرُّدُ زادي

وَحطّيَ فوقُ على ثغرِ
بعضِ النجومِ البِعاد

بلادي، دعوني أصبُّ
لها الكأسَ خمْرَ ودَادِ

أنا فرحتي أنّها هيَ
في فرحةٍ وتماد

وَقَولي لها : فتّحي طيفَ
زنبقةٍ في الوِهاد

وُجدتِ، سكِرتُ ! أنا خمرتي
أنْ تكوني بلادي

دموع الحجر

قال لي واعذوذبَ الحجَرُ :
انا لي في دمعةٍ سَفَر ...

من تُرى الدمعةُ ؟ ذاتُ الغِوى
مَنْ إن احلولتْ وهَى النظر

وإن اشتاقته أودى به
الشوق ... فهْو الليل والقمر ..

قالها وارتاحَ ... والمُنحنى
مُكْمِلٌ عنه .. ومُخْتصِر ..

خبِّري، يا زهرةَ لألأتْ،
أمُنىً ما قالَ أم صُوَر ؟

ألَها الاحجارُ تحنانُها
وبكاءُ العينِ والدُرَر ؟

أم تُراه ذاكَ مذ سامَروا
طيفَه طابَ له السَمَر ؟

وجرى في وهمِه أنّه
شاعرٌ والناسُ ما شعَروا ؟

فأجابتني التي لألأتْ :
ـــ يا تُرى وحدَكُمُ البشر ؟

حجرٌ باحَ ... وصدَّقتُهُ.
لمَ لا ؟ يَعشقُني الحجر ...

هُمُومُ الجَمال

أَلناسُ ؟ لا عليهِم ...
الحُسْنُ لأهلِ الحسنِ هَمْ

إسأَلْ غروبَ الشمس، وَقْعَ
الليلِ في صدرِ القِمم

مُلتَفَتَ الغُصْنِ الى النسمةِ
والهزُّ نغم

اللهُ ! هذا البَدءُ في
الدُنيا وهذا المُخْتَتم ...

لو أنهم يدرون جُرْحَ
الشمسِ إن همَّت بِلَم

أشعةٍ ولم تطاوعها
التي صارت رِمم

أو آهةَ الليلِ إذا
القِمَّةُ لم تَشهقْ لِضم

لو أنهم يدرونَ ما
اوجاعُ إزميلِ صدَم

صخراً ولمْ يئنَّ ذاك
الصخرُ من طِيبِ الألم

أو ما دموعُ وتَرٍ
ظلَّ به اللحنُ أصم

رَنَّ وما جُنَّ ! تقول
الوردُ أبدى ما ابتسم

الناسُ ؟ لا عليهم ...
الحُسْنُ لأهلِ الحَسنِ هَم

فراشة ... فراشتان ...

فَراشةٌ ... فراشتانْ ...
أو اربعٌ ... رَفّ الحنانْ

الزهراتُ بجناحين ...
ويَنهضُ المكان

أركضُ أركض ... الحقي
بي، يا نسيماتِ الأوان

وراء مَن ؟ ... وراء
اغنيّة لونٍ وجُمان

قلبي على البنفسجيّ ...
او على الأصفر ... حان ...

وُقبلتي كأنها
طارت تصون أو تصان ...

مَن هاتفٌ كما الكنارُ :
شِلْ بنا، يا بيلسان

زهرُكَ رصّعتَ به
أجنحةً من عنفوان

فنقلةٌ على الصدى
وغُربة عن الزمان !

أنا، هنا بين الفَراشات،
انخطافٌ وافتتان

أرمي بعينيَّ فما
يداي بعدُ تقبضان

حتى اذا أأْسُر ــ ما
أأسر ؟ ــ حُباً وأمان ؟

تعمُر بالجمال عيناي،
وتفرغ اليدان ...

نَهر

شريطُكَ والقمرُ
الى اين يا نَهَرُ ؟

يلُفّان قلبي وقلبَك ...
وَلْيضجرِ الضجر

يدان هما للعطاء
فما بعدُ أنتظر ؟

وأشرب من كلّ كفٍّ
رحيقي واستعِر

ولو، لو غداً وقعا بي
وقالا : سنُختصر

بِحبك، بالليل، بالشِعر ...
ماذا أتعتَذِر ؟

يمرّ ببالِيَ أني
الرياحُ، الندى، الزهَرُ

على أَنملي ترقُص الشمسُ ...
والانجم الأُخَر ...

ومَن يا تُرى انا بعدُ ؟
حديثُ الاولى سمَروا ؟

تهيّبتُ ذاك الجوابَ
وقَولي : أنا القدر !

هُمُ ؟ خلّهم ... انا فوقُ ...
ابتكرتُ وما ابتكروا

شريطَ اللجين، اليّ
وطِرْ أنت والقمر ...

أغنيةُ الهدوء

اغنيةُ الهدوء ... واسمعْ
صوت الضحى أنقى وانصعْ

ضِحْكَةَ مَن بعد سنيها
العشْر وافَتكَ بأربع ...

ضِعْ ... ضع بها ... ولا تعُدْ ...
اليك كالعمر المضيّع

تمْلُكه هذا الوجودَ
ما بقيتَ منه أروع ...

ويكَ ! بأَنْ تطفُرَ في
الآن كما نبعةُ بلقع

تُخصبه، تُلهبه
بالزهر منه الزهرُ شعشع

اغنيةُ الهدوء تَدعوكَ
اخطَفِ الحسنَ الممنّع

في قطرة الندى، على
الجبهة، روحُ النهر اجمع

ما النهر ؟ لا إلّا الزمانُ
القاهرُ التاع ولوّع

انزِل به، استحمَّ، كسّر
قُمقمَ السِحر المرصّع

أنت، اذا أنت ابتدعت،
صرتَ ما انت وابدع

قال لك الوجودُ : منك
انا ... من خِدشة إصبع

اغنيةَ الهدوء، يا
درباً الى الله ... ونطلَع ...

لِمَ الورد ؟

لِمَ الوردُ ؟ كي يذكُرا
بأنَّ الجمالَ اندرى

وطاب، صبيحةَ عن كفّه
استقبلتكِ الذُرى

نسيتِ ؟ ... أرادكِ لا
تسأمين ... ولا يُفترى

عليه بان بكِ جُنّ ...
وفيما عدا زَوّرا ...

بلى، شاء شاء الزهورَ
تحُفُّ بمن صوّرا

رمى ياسميناً هنا
ضاحكاً ... وهنا عنبرا ...

الى النسمات فَراشاً،
على النهر نَيْلُوفرا

وفي اللاهنالك خلّى
مطارحَ ما أقفرا ! ...

لعلّكِ بعدُ تَريْنَ
من الزهْرِ ما لم يُرا ...

لِمَ الوردُ ؟ كي لا تمرّي
بأخضرَ ما نَوّرا ...

ولا تَطرُفي بعضَ جفنٍ
على غُصُنٍ أصفرا

وإمّا اعتراها اناملَكِ
اللُدْنَ ما مُعترى ...

وقلتِ : سأقطِفُ ... كنتِ
وكانَ المدى أزهُرا ...

وَرَقُ الشمس

هُمُ ؟ ... دَعْ ... انا الشمسُ لي مذهبُ
فيا ورقَ الشمس، قم نكتبُ

عليكَ، على منتهىً لا يذِلُّ،
على جبهةٍ في الضحى نضرب

الى جرِّ ريشتيَ ارتاحتِ الريح
والتفت القدر المُعجَب

فهل سألا عنهمُ ؟ ... مَن يكون،
لِيُسألَ عن شأنه، العنكب ؟

ويا ورقَ الشمس، بعضُكَ نسجي
وبعضُك مِن نبرتي مُشرَب

الى نَقْط حِبريَ انتَ المَشُوق
كأنْ كوكبٌ شاقه كوكب

يهبّ عليكَ، وأنت الطريف،
شذا نَفْسيَ الطيّبُ الطيّب

فتغدو ولا خوفَ، هل يَخمُد الحوضُ
ما بقيت وردةٌ تَلْهَب

تنزّلتُ ... صرتُ عليك كبيتٍ
من الشِعر عبر النُّهى يَلعب

يطير، ايا ورقَ الشمس، بالشمس ...
بالحقّ ... بالحسن لا يكذِب ...

ويكَ ! انسني يا ربيع

ويكَ ! انسَني، يا ربيعْ
ولا تُرِدْني أضيع ...

في الحقلِ ... في الزهر ... في
دمِ المساءِ النجيع ...

لا، يا ربيعُ، اتَّخِذْ ،
قلبي من الحُسْنِ رِيع

قصّةُ حبٍّ أنا
يُوجِعُها أنْ تَشيع ...

تُريدُني نجمةً
سكرانةً بالهزيع ؟

أوّاهِ منكَ ! انسَني
ما أنا بالمُستطيع !

إلّا إذا شالَ بي
الزَهْرُ جميعاً جميع ...

وصاغني خاتَماً
لإصبعٍ لا تميع

او سَكْبَ عِطرٍ على
صدرٍ بديعٍ بديع ...

حقاً أنا راجعٌ
مع الزمانِ الرجيع،

فراشةٌ نَقَّطتْ
هذا البساطَ الوسيع ؟

وظِلُّها فوقُ فوقُ ...
لازَوردٌ نصيع ؟

تدورُ ... دارتْ بها
دُنيا ... وقلبٌ صريع ؟ ...

ربيعُ، لا قلتَها ...
انسَني انسَني، يا ربيع ...

أغنية إلى الرائي ...

اللونُ ؟ قُلْ أخضرْ
غَلَّ بهِ واسكر ...

كأنما عنبرٌ
أنت ... انتهى عنبر ...

واللون، قل برتقاليٌّ
إلى أصفر

عُنَّ على بالهِ
كالطيفِ أو أَكثر ...

إلّا إذا ضجَّ ناريّاً
او استكبر

فاهلَكْ عليه ولا
فراشةٌ تُهْدَر

واللون، إنْ تنوجِعْ
له فَقُلْ أحمر

واخضِبْ به هِمّةً،
كالسيفِ لا الخنْجر

كأنَّما قِمّةٌ
أنتَ فمن يَقهر ؟

واللون، قل زنبقٌ
أبيضُ أو مرمر

كوثرُ ضوءٍ ... وضيعْ
في نبعةِ الكوثر !

وكلُّها ؟ ... لا، دعِ ...
الألوانُ لا تُسبر

أجملُها ما انتهى
كالجوِّ ... كالجوهر ...

تَكتُمُ ؟ مَن قال ؟ ... كُنْ
تُنسى ... وكُنْ تُذكَر ..

يلفحُني السكوتْ

يلفحُني السكوتْ
كشمعةٍ تموت !

تَمنح نفسَها
طابَ العطاءُ قوت

قُلْهُ الفراغَ، يا
قلبي، بلا نُعوت

قُلْهُ الجمالَ لا
يرِنُّ لا يَصُوْت

كغُصْنِ توتةٍ
مقندلٍ بتوت

الله ! لا تَفتُنّي
هدأةٌ تفوت

أُذني ... ولا هوى
البحرِ ... ولا البُهوت

أنا عَمَرْتُني
عمَرْتُني بيوت

ناحِتُها الذي
احلولتْ به النُحوت

أعلى مقصًّباً
مِنْ حَجَرِ الثبوت

قال : بدونيَ
الوجودُ عنكبوت

أرجوحة

قلبي ألا غنِّ غنِّ
ولْيسكرِ الليلُ منّي

قُل : اسمُه الكونُ، ذاك
الغُصْنُ الأنيقُ التثنّي

أنا وقلبي وهذي
الريحُ الحنونُ كوَهْن

أُرجوحةً من خيوطِ
النجومِ، مِنْ جَذْل ظَنّ ...

لم ندرِ أين سَنَهْدا
في المَهْلِ ... أو في التمنّي ...

بيني وبينكَ، يا
قلب، لا يكُنْ من ئَجَنّ

خَفِّفْ إذا شئتَ لَكِنْ
تخفيفَ حُسْنٍ بحُسْن

يا قلب، يا خافقُ،اخفُقْ
واغزُلْ أُويقاتِ فنّ

مِن فرحةٍ دُسَّ فيها ...
ومن غِوىً ... وتأنّ ...

أنا البكاءُ عدويّ
لا كان كُحلةَ جَفْن

كلاميَ النارُ يبقى
جِنُّيةً وَسْطَ بين

أنا وكلُّ الورودِ
التي بقلبي تُغنّي ...

مَعَ الرّيح

مع الريحِ، يا قلبُ، واعزُفْ
كما ريشةٌ فوق عودْ

حبيبٌ إليَّ تثنّيكَ
لحناً تروحُ ... تعود ...

شَروداً ... شَروداً ... كأنَّكَ
فيكَ يضيعُ الشُرود ...

تُواعِدُكَ النجمتانِ
وواحدةٌ لا تجود ؟

تصبَّرْ. لَأجملُ ما في
الدُمى أنَّهنَّ وعود

أَمَا نحنُ من غُصْنِ وردٍ ؟
أَمَا نحنُ همُّ الورود ؟

تمايلْ أَيا قلبُ، لا تُستلذُّ
الحياةُ جمود

هُتافُ العُلى أنْ أَطِلْهُ
المدى، وانتهِبْها الحدود

وأنْ واجهِ الريحَ عذراءَ
تحمِلُ طعمَ الجرود !

وفيمَ وجودُك ؟... انْ كُنْتَ
حُرّاً فأنتَ الوجود

إنتساب

أنا كُتِبَ اسمي بغزّارْ
عليَّ ... على شجر النارْ

ولوّنَ اسميَ الريح داعبتِ
الريحُ أجنُحَ أطيار

انا ماءُ هذي الينابيع
أندسُّ في كلّ عرعار

أناقتُه البابُ منّي
ومنّي تمايلُها الدار

ويأخذني ويردُّ
الغَمامُ كما القمرُ السار

الى أين تهرب مني
الجبالُ ؟ انا المُزْنُ مِدرار

لئن فعَلت صرتُ أُفقاً
على الأفْق والجارُ للجار

تلبّد َثلجٌ على قِمّة
الكون وانهار وانهار ...

تعالَي، صغيرتيَ الأرض،
غُلّي ... فؤادي أنا حار

وما همٌّ أني فقيرٌ
وأسكنَ عند شَفاً هار

وأَنْ ليس لي دَنُّ خمرٍ
فاسقيَكِ السرَّ أسرار

خلعتُ عليكِ الكلامَ،
كلامي، جبينَكِ، والغار

أنا كُتِبَ اسمي عليكِ ...
عليَّ ... على شجرِ النار

كتابة

كتبتُ أيا ورقْ
هوايَ على الحَبقْ

أما هو أوفى ؟ لئن
ترِقَّ،الشذا أرَق

ستمضي ويبقى ليحفظَ
السرّ والحُرَق

ويدركَ رفُّ السنونوات،
على الغسق،

لذائذَ مدَّ الذراع ...
والثوبُ شُقّ شق ...

هو، اسكُتْ ! ... سيذبُلُ لا
يخبرٌّ ... لا وَحَق

صباحَين قلتَ جَمامَ
كأسٍ بكأسٍ دَق

ويا ورقُ، افرحْ بمن
نأتْ بارقاً بَرَق

وجعتَ ؟ لو انكتبتْ
عليكَ انتهى الرمق ! ...

وليتكَ ظِفْرٌ لها
ومزَّقني ورق

حكاية الحمام

وقال كنتُ حالمْ
وفوقيَ الحمائمْ

تمرّ بي كزهرٍ
يُفتّح الكمائمِ

أميرةً لِسربٍ
مُصفّقٍ مُناغِمِ

وكانَ أنْ حكَتْ لي،
حكت، وكنتُ نائم

حكايةَ ابنِ عشْرِ
قضى وظلَّ هائم

بمن بكَت عليه
وأبكتِ النياسم ؟

ضريحُهُ بعيدٌ
فوقُ، ولا سلالم

وزَهَرٌ بشوكِ
يردُّ ظُلْمَ ظالم

تجيء كلَّ يومِ
تسقيه بالسواجم

حمامةٌ هواها
يا ناعماً ... يا ناعم ...

تسألُ لِمْ أحبّتْ
مَنْ حُبُّه مواسم ...

يوماً لها ويوماً
يقول : لستُ عالم ...

لكنّه غداةَ
استودَعَها التمائم

قال لها : سأبقى
على الوداد قائم

صُبحاً أجي وصبحاً
أظَلُّ في الطلاسم

هذا فلا تملّيْنَ
عاشقاً مداوم

مِن يومها تُناثي
وتَرجِعُ الحمائم ! ...

ليتني مثلك يا شجر

ليتني مثلَكَ، يا شجَرُ
هَدِلٌ بالزهر أو عطِرُ

تعرِفُ ؟ ... اسألنيَ عن وجعَي
منكَ : لِمْ تقتلُني الغِيَر ؟

أتُرى مسّتكَ لفتُها
حلوةً باقٍ لها أثَر ؟

مرّةً مرّتْ بضيعتنا
ثم لم يُخْبَرْ لها خبر

قال في ظلّلكَ، غِبّ الضحى،
وقفتْ ... فانتسب القمر ...

قامةٌ صعبٌ تململُها
بين غصنين ... ومبتكَر ...

عرفَوها ؟ ... ليس مَن يدّعي ...
إنما مِن بعدها سهِروا ...

كلّما عنها حكَوْا قُلتَهم
أُخَراً ... آهاتُهم أُخَرُ ...

همسةٌ تأسِرُهم من هنا ...
من هناك السرُّ ينتشر ...

انما أُمّي روت عجَباً
عن صِباً ما الضوءُ، ما الشَرَر ؟

سألوها : وهو هل طرَفتْ
عينُه ؟ هل شاقه الخَفَر ؟

فلوت جيداً ومن فرحةٍ
طفَرَتْ من عينِها الدرر

أتُراها لي بها حلمتْ ؟
ذِكَرٌ، احلولينَ، يا ذِكَر

أنا قد خُيِّل لي أنّها
رجَعَتْ مذ رجَعَ الزَهَر

أين أُمّي الآن ؟! يا حلوةُ،
انتظري ... ما دمتُ أنتظر ...

عاصِفَة

تُحبُّني، يا تسلمُ، الرياحْ
كما يُحِبُّ البطلَ السلاحْ ؟

بشَعَري كم لعِبَتْ وكم
على جبيني انتثرت أقاح

وبعثرتْني فكأنّني
على مطلّات الرُبى، الصَباح

والليلُ ... والجمالُ ... والنجوم
دُرن درن مُيَّداً مِلاح ...

تغوى بيَ الرياحُ ... مرّةً
أتت على ذكري مع الرماح

قال أنا واحدُها ... فَلِي
نصْلٌ أوانَ الطعنُ لا مُزاح ...

وعُقَدي غُلْبٌ فمَسْكُها
إلّا لمن تهواه لا يُتاح

لكنّني هوايتي الندى،
شَهْمٌ فلست أعتدي، صُراح

أشرفُ مَن قاتل، مَن صَبا
الى التحامِ ماحقٍ وماح

حتى إذا رجَحْتُ وانشكى
منّي اليّ، كان لي سَماح

الريحُ قُلْها بعضَ ضربتي
آناً وقلْها بلْسَم الجِراح

عَلائق

ضِفّتا نهرٍ ؟... ألا مرّي ببالي
يا رُبىً لهْفي عليها وسؤالي

حافياً كنتُ أُباديكِ ضُحىً
والضحى أزرعه أشتاتَ حالي

طفلُ حسنٍ لاعبٌ بالمنتهى
قلتِ بالحصباء أو فَرْطِ اللآلي

يَنقل الكرّامُ عنّي خبراً
عَطِراً، أجملَ من حلم الدوالي

سألتني فيه أُمّي، لم أُجِبْ
قال أعطيتُ الرُّبى حفنةَ مال

لِمَ لا ؟ الضوءُ كريمٌ وأنا ...
هل بغيري نِيطَ إطلاعُ الجمال ؟

فيه ذاك المُتناهي في العطا
كنتُ أقرا، في الجبين المتعالي

أجملُ الكُتْب أبٌ جُنّتْ به
نبعةٌ تدفُق مِن عَلْيا الجبال

غالَبْته ... إنما ارتدّت، فيا
ضِفّتيها حدّثا عنه الليالي

وأنا اليومَ أرى الزهرَ انتشى
وتغاوى ... لتغنيٍّ بآلي ...

هو أصلٌ لهمُ ؟ لا قلتَها
لا، وهَمُّ الزهر من هَمِّ الرجال

يا رُبىً فوقَ على أذرعهم
رُفعتْ، هُبّي كما الريحُ ببالي

جِوار

جُرُفٌ ... على واديٍّ هارْ ...
اهواهُ يبعثُ بي دُوارْ

غيري يخافُ ... انا أُحِبُّ
الخَطْوَ في ذاك الجِوار

مَهواتُه خَطِرٌ ؟ جميلٌ
أن أُجيرَ ولا أُجار

القَعْرُ يَسحَرني أنْ اسْقُطْ
أو أقولَكَ في فِرار

أنا ؟ خلِّها لسوايَ ... لا
تَسْتَشْرِ أو تلقى الشَرار

لي لَذَّةٌ بتفرُّسي
في الموتِ في عينيه نار

بيتي أنا الخَطرُ البهيُّ
حِجارُه منّي حِجار

خُذْني، شِوارُ، إليكَ ... خذنيَ
بَعْدُ ... قل : أخذاً بثار

أومَا أنا مَنْ غَلَّ صخرَكَ
مثلما زَنْداً سِوار ؟

حاورتني، عارٌ عليَّ
تكونُ أنتَ النِدَّ، عار

أنا، لو ذكرتَ، رَبيتُ وَسْطَ
الطعن أو رنِّ الشِفار

بيني وبينَ السيفِ، لا إلّاهُ،
قد طاب الحِوار

أيا شطّ

مَن لي، أيا شطُّ، بمن
يهذُر لا يسكُتُ مثلَكْ ؟

في الحرب، في نَحْتِ رُبى
الحُسنِ وفي زهرةِ لَيْلَك ...

لَخاملٌ كالميتِ مَن
ما حُرّ يَبيضُ ويَحْلك

كالموجِ يَمضي يضرِبُ
الأرضَ بنهدِ الأرض أفلك

عزمي،لكان السيفَ لو
أنيَ بالخلجانِ أُسْلَك

أغدو أنا اغنيّةً
تُهلِكُ من صخرٍ وتُهْلَك

يا شطُّ، لِمْ ليست جِراحاتي
على الأيامِ أهلَك ؟

ما بيننا تسكُنُ كالحُبِّ
وتستشرِفُ سُبْلك

يَبرُد قلبي ... فتناديه
أنِ اشعَلْ أو أَملَّك ...

يا شطُّ، يا أجهلَ مَنْ
يهدأُ، علِّمْنيَ جَهلَك

إليك، يا غزير

إليكَ، يا غزيرُ، يا ذاتَ الولَهْ
اغنيةً حمراءَ كالقرنفُلَهْ

جَدّيَ في أرضكِ هام بالتي
اختطفها تُعلي وتُغلي منزلَه

وقيل لي كانت، كما الشموخُ في
جبهتِها، كاملةً مُكمَّلة

لو أنّني أعرِفُها سألتُها
عن خصرِها يومَ جَدّي زلزله ...

وكيف كانت مَعَهُ على الحِصان ؟
طَلْقة القامةِ أم معتدله ؟

وهل دراها فوق حقلِ سُنبلٍ
وقبّلَ الفمَ الذي ما قبّله ؟

بشَعْرِها هل ظَلّلتْهُ وارتمى
على حريرِ شعرِها ودلِّه ؟

قريةَ جَدَّتي الغنوجَ، أومئي
بمثلما كانت ضُحىً تومئ له

أُحِبُّ أشجارَكِ باقاتٍ على
الطريقِ والشمسُ بها مشتعله

وأنا ضائعٌ كما اسمُ بطَلٍ
في قِصّةٍ ... تبدأ من قَرَنفُله ...

تُمطِر

تُمطِرُ أو تَبكي دُرَرْ
وأنّتَينِ من وَتر ...

أُحِبُّها أُحِبُّها
ليلتيَ الملأى خطر

كأنّها جاءت مِنَ
الكتابِ، من بَرْدِ الصُور ...

وحُفرتْ في خاطري
بقلمٍ من القمر

لذيذةٌ ككلٍّ صعبٍ
وكرِحْلاتِ الغجَر

ضجيجُها ضجيجُهم
مِن فرحٍ ومن عِبَر

وأنا في فِراشيَ
الوثيرِ، أسرِقُ النظر

إلى اهتمامِها بنا ...
بدارِنا ... وبالشجر ...

نحن تُغنّينا، ودارُنا
تَردُّها شَرر

بُروقُها، والشجرُ
العالي تلوّيه غُمَر

يا ليلةَ الشتاءِ، لا
تنسَيْ أنا ... أنا بشر

مثلَهُمُ أذهب أنّى
شئتِ، مجنونَ سفر

مثلَهُمُ ... ألا اقرئيني
في حكايةِ المطر ...

غيم

لي مع الغَمامْ،
لو دَرَوا، كلام

أمس، سمِعتْ
بعضَهُ النِسام

— ظَلَ ايضاً
قلتُ، أو أُضام

كغِلالةِ
ظَلٍّ، أو كجام

شرِبتْ به
خمرَها الأنام

ما النُّعاسُ إن
مَرَّ بي لِمام ؟

ما الشُعاعةُ
انكسرتْ حُطام ؟

أنا منزلي
أنتِ، يا رُكام

لُؤلوءٍ ويا
جانِحيْ يَمام ...

يا غمامُ، لا
تردُدِ السلام

ظَلَّ صامتاً
وليَ الكلام ...

قديم...

أُكْتُبْ على الريحِ ، اكتُبِ
الكلماتِ اوجعَها الحنينْ

ماذا ! القديمةُ ؟ لا عليكَ ...
اقرأْ غداً مَيْداً ولِين

ليس القديمُ سوى سياجِ
الوردِ مُنهدّاً طعين

عنه تَلُمُّ لِترشَق
الزهَراتِ أجملَ ما غَوِين

قالوه : صوّح ؟ ... جُزْ بنا،
القوّالُ، جِيرتُه تَشين

إنَّ القديمَ أُحبُّه
كالليلِ لم يبرحْ حزين

يكفي أنِ اعلولى ... جديدٌ
كُلُّ مُرتفع الجبين

لي عمّةٌ من قال مائتْ ؟
هل يموتُ الياسمين ؟

مسَحَتْ على فمها يدٌ
مِن فوقُ، قالت : لستِ طين

ولَها ذِراعانِ الصباحُ
على الصباحِ له رنين

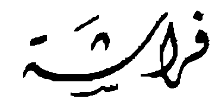
أتُرى الثمانونَ الصِبا ؟
اختَنْقَهُ اختنُق الهَمُّ الدفين

أُكْتُبْ فأحرفُكَ الرضى
بعضُ القوَامات اشتُهِين

أو فامْحُ تسلَمْ ... لا ضمِنتُ
تلفُّتاً صوبَ العرين

الشمسُ تسبرُّها بأنْ
تُسبى بِها مذ تَستبين

دَعْ عُمْرَهَا ... عُدَّ الجمالَ
ولا تعدنَّ السِنين



اغنيةٌ ما إنْ لها مَقَرُّ
تمرُّ بي اجملَ ما يمُرُّ

عيني لها ؟... لا والنسيمُ غاوٍ
يَحفُرُها بي والجمال حَفْر

في قَعْر بالي وقْعُها وفيَّ
القَوامُ ... وانسكابةٌ... وخمر ...

حسناءُ ام قولٌ بِها ؟ ... تلوّعْ
واسكر ... فأنت شاعرٌ وشِعر

أم عِقْدُ وردٍ هِيَ ؟ ... سَلْهُ سله
عُنْقي الذي منها لواه عِطر ...

فأنا بعدَ لفّها بزندي
أضيَعُ ما به يَضيعُ عُمر

كانت ؟ ... لَرُبَّ ... اناذا رَمتْني
زهْراً وقالت : هل يُلَمُّ زَهْر ؟

فَرَاشتي، هل تعرفين شيئاً
عنكِ؟ ولِمْ أنا وأنتِ سرّ ؟

غذاؤكِ اللون ... الجمال ... بعضٌ
من قُبلةٍ لي ... والعناق حَرٌّ ..

مِن بعدها تحمِلنا وتمضي
ارجوحةٌ خيوطُها تكِرّ

على الرياحين ... على الثواني ...
على زماناتٍ لنا تِفرّ

صفراءُ، إن قلَّ الوجودُ يوماً
أنا وأنت والربيع كُثْرْ ...

شَوك

شوكُ، من أنتَ ؟ ... أكَسْرُ
البُغضِ اغصانَ الوجودِ ؟

هبّةُ الريح لِجدوى ...
مَيسةُ النبت لِجُود ...

جَمرةٌ تُدفِئُ، حصباءُ
تُقوّي مِن جُرود

أنتَ لِمْ أنت ؟ ... لِقول
اللاّ؟ لِتسديد الوعيد؟

آنَ لا تُدمي تَظَلُّ
المُخْوِفَ الوغْدَ الحدود

كَفُّ ربي، صنعُها انت ؟ ...
الا، يا أرضُ، ميدي ! ...

أنتَ في اللوحةِ نِسْيانٌ...
وغَصٌّ في النشيد...

رُدَّ عنّي وجهَك الجَهْمَ،
انا البسمةُ عيدي

اسَع المُبغِضَ، امّا
البغضُ فليبقَ طريدي

ليس شِعري لسوى، الحبِّ،
وللوردِ النضيد

أُسكُنِ الوردَ، أيا شوكُ،
ولا تسكُنْ قصيدي

فَوق

يغمُرُ القِمّةَ ضوءٌ ليس يُعرَفْ
يا تُراه العمرُ في القِمّة أكثفْ ؟

إحملِيني، يا هُنيهاتُ، الى
فوقُ، ولْألْبس شُعاعَ الشمس مِطْرَف

فوقُ، في هذي الجرودِ، انفضحتْ
آهةُ الحُسن وقد كان تعفّف

مِثلُنا الحسنُ. يُغنّي ... يَنتشي ...
ويُحِبُّ الحسنُ حتى قيل يَتلَف

يَطلُبُ الأكثرَ ... لا يَرضى بما
هُوَ ... يَستشفي بجرحٍ ... يتأفّف ...

سائلاً لِمْ هوَ ثاني المنتهى
لِمَ ما حطَّ على الغَمْر ورفرف

ــ أنتَ، يا خالقُ، مذ شئتَ المُنى
شئتَني، قالَ، من المُنية أطرف

كِذتُ أعصاك لأني موجَعٌ
بي ولكنّيَ بالماأنتِ مُذْنَف

ما انا الحسن ؟ ... ويرنو الله للحسن
يلقاه على العصيانِ أشرف

هَزَّني الشوقُ الى فوقُ ... ولَم
اترفَّقْ ... ها أنا أَلْطَفُ ألطف

فوقُ في القِمّة، ما لي أدّعي
أنني باللّه، يا أللّه، أعْرَف ؟

الجَـرَّة ...

أنتِ مَن ؟ ولم نَعُدِ
شابكَيْ يدٍ بيدِ ...

زنبقاتُنا وجِعَتْ
لِقَوامكِ النكِد

سألتْ وما سألتْ
عن غِواكِ والغَيَد

هل تُراكِ طائشةً
أم هواكِ عن رشَد ؟

جَرّةٌ على كتِفٍ
فالوجود في بَدَد!

بنتَ جارنا، التفتي
أنا منكِ في صدَد ...

جرّةٌ وما حَملَتْ
فوق شالِكِ الغَرِد

يكفيان غيرَ فمي ...
يُرضيان غيرَ ددي ...

بنتَ جارِنا، انتبهي ...
لي سُويعاتُ مُبترِد

إنْ مياهُ بِركتنا
شاكستنيَ ... انوجدي ...

علی شَعرِ ابنةِ الريح

على شَعر ابنةِ الريحِ
انا ضيّعتُها روحي ...

رفاقي، صائدِي الوهمِ ...
اكتبوني، بعد تجريح،

على السّهمِ ... على الوهمِ ...
على زَهْرِ التواشيح ...

على شَعْرِ ابنةِ الريح،
وقد راحَ الضُحى يوحي ...

تسلَّقْتُ الى الوردةِ
طارتْ غِبَّ تفتيح !

إلى آونةٍ، مِن فوقُ،
عصفِ الريحِ بالشيح

إلى مذبوحةِ الأنجم
لا تَشقى بمذبوح ...

أناةً ! لا تردّوني
إلى أرضِ التباريح

رُبىً لم تَدْرِ أن الشمسَ
شَعْرٌ رهنُ تسريح ...

صِحابي، أنذا وردٌ
على شَعْرِ ابنةِ الريح !

هُنيهاتُ، يا ورقاتِ الزمن...

هنيهاتُ، يا ورقاتِ الزمَنْ
على مَهَلٍ أو أهِي من شجنْ

أخذتُنَّ في الركضِ .. خَلِّينَ عنكُنَّ ...
ركضُ الهُنيهاتِ لا يُعتلن

أكاد أراه ... كأنَّ الخريفَ
تناثَر في لَفتتي ... مُمتهَن ...

هنيهاتُ، لوِّحن قبل الذهاب
كما شَمَمُ الفكر قبل الوسَن

أُحِسّ تناثرَكُنَّ كنهرٍ ...
وأمضي على النهر ... تيّاهَ فَن

تكاسَلن .. أو أُجرحَ الليلَ والفجرَ ...
والنفَحَاتِ التي من عدَن ...

زمانَ تأنّى الإلٰهُ فركّب
حواءَ من « نعمَات » و « لَن » ...

كأنْ خطَّ في اللوح ان التمنُّعَ،
رُغمَ التولّه، شرطُ الحسَن

فقال وما قال ... وافتُتِن الكونُ
باللايكونُ وراح يُجَنِ

وها نحن نَمشي على الورَقات
ونصرُخُ : لا ... يا احتضارَ الزمن ...

العمود المنكسر...

بقيةٌ ؟ ... ما همَّ ؟ يا عمودْ
لكمِ غوَيتَ النجمةَ الودودْ

فوقُ تمايلتَ كما العُلى
مُناخُكَ الصبُّو والصعود

لِكلِّ لاعبٍ شبابُهُ
دَعْكَ ؟ فما شبابُكَ الخلود

حملتَها السماءَ مرّةً.
يكفي ... فما للآبدِ الزنود

تَظُنُّكَ الأرزَ ؟ لذيذٌ الطموحُ
والجَهْدُ ... وأن تَجود ...

لكنَّ للقُدرة حدَّها،
ووحدَه الخالقُ لا حدود

تَغوى ! تُرى اشتقتَ الى التي
فوقُ، الى قامتِها المَيود

جِنيّةٌ في بعضِ نجمةٍ
تعيشُ ... أو في الحُلْم والوعود :

أنتَ كبيتِ الشِعر، مُسْلِسٌ
يوماً،ويوماً حَرِنٌ شَرود ...

ان دَقَّ لم يُمْنحْ فطَنّه
مَن ظنّه محطَّماً كعود

حتى اذا ألوى عليه مَن
يَحبِس فيه البرقَ والرعود

قلتَ، وقد ذُهِلتَ : هل إلى
بيتٍ من الشعرِ انتهى الوجود ؟

عمودُ، لا تَنْسَ الربيعَ، لا ..
أجملُ منه أنه يعود

وَرَدَة

ساقُها والورَقْ
أختُ ذاكَ الشفَقْ

سألاني بها
رِفْقَ قلبٍ رفَق

غمَزا : لا تَكُنْ
حجراً من بلَق[1]

---

١) رُخام.

مُسَّ بالعينِ ، لا
بيديكَ، الألق

أجملُ الأخذِ : ما
أخذهُ بالرمق

حُبُّه بالرؤى،
عُمرُه بالحُرَق !

شُمَّها مِن بعيدِ
كبرقِ برق

أو كسهمِ الى
آهتَيْهِ انرشق ...

أنا يا ليتني
بعضُ حُلْمِ صدَق !

هَمٌّ لونٍ وهمٌّ
شذاً... أو أَشَقّ،

فوقَ صدرِ الرُّبى،
وردةً تُنتَشَقَ...

تلال

لُعبي بها ... وقالْ ...
تلعبُ بي ... التِلالْ ...

هذي كطفلةٍ
دوماً لها السؤّال :

« أنتَ مصوِّري ؟
لِمْ زدتَني ظِلال ؟

لِمْ شئتَني صدى
الأغنيّةِ المُحال ؟ »

وتلك ترتئي
أني وجيعُ حال ..

قال أُحبُّها
حُبَّ صدٍ لآل !

لكنَّها ولو
أموتُ لا تُنال ...

أنا ؟ دعيكِ، يا
مفضوحةَ الدلال ...

مَنْ، طيِّ لفتتي،
وقعتِ من جمال

وتحت شِقٍّ
غزّارتيَ السِجال

قلتِ لقبلةٍ :
هذي أنا اشتعال...

تلالُ، شِلتِ بي
كالريح، يا تِلال ...



هَجَرَنا ـــ اسألْه : لِمَ ؟ ـــ الضياءْ
يا قلب، واحلولِ كما المساءْ

كان لنا ؟ ... ها نحن لَمْ نزَلْ
له ... اشتياقٌ نحن واشتهاء ...

هجرَنا الى الذُرى ... فقمْ،
قلبِ، اليها نَسَماً وماء ...

قلبٍ،ولا تَظُنَّ غيرَنا
الندى ... ولوْنَ الزهر والنَقاء

ونحن مَنْ يبهو لمرّةٍ
ومَنْ يظلُّ ابداً بَهاء

خُذني الى المساء ... خُذْكَ ... خُذْ
حبَّكَ والسموَّ والسماء ...

تقول : قد لا يذكُر ؟ ... ارتفِقْ
به فلا ساء ولا أساء ...

يُحِبُّنا المساءُ ... بيننا
وبينه ما ليس لانتهاء ...

« ذاتَ مساءٍ » قولةٌ لنا،
نحن اخترعنا كَلِمَ الوفاء

غناءُ عزْفه ِ — وما انتهى —
نحن، ويُفدى العزفُ والغناء

يَنتشرُ المساءُ في الرُبى،
ونحنُ في الرُبى وفي المساء ...

نبع

إرمِني، استلذُّ
المرتمى، عند نبعَهْ

لا لأني حَرورٌ ...
انا أُكفى بِجَرعه ..

ما بماءٍ هُيامي ...
وادعُني النَبْعَ ... أدْعَه ...

بينَنا مثلُ قُربى ...
بيننا مثلُ لَذعه

فكأنْ كان نبتاً
وكأنْ كنتُ طَلْعَه

أو هو الهُدْبُ ... ولْأيقَ
على الهُدبِ دمعه

ودَّ مَن ودَّ لو أنَّ
له ثَمَّ ضَجعه ...

،

وله مرجةُ النبع
مِن الخلدِ رُقْعَه

أنا ؟ لا ... والتلوّي
منه ضيَّقتُ ذرعه ...

إرمِني عنده ارمِ ...
المنتهى لاح خُدعه

تعرف النبعَ ؟ ... شمسٌ
ذاك ! ... والناسُ شمعه ...

نجوم

فوقَ ما أنتِ ـــ ويحَ حسنٍ ! ـــ تُغنّين ؟ ..
ألا لو تعِبتِ، لو ... يا نجومُ

وقعَتْ مرةً عليّ من القُبّة،
مِن فوقُ، آهةٌ وهموم

ما الهمومُ ؟ ارتجافُ لونكِ ... ما الآهةُ ؟
صوتٌ من الضياء مَلوم ...

يا نجومُ، اسكُتي ... أُحبُّكِ ... كأسي
منكِ ... غالي عُنقودِها ... والكروم ...

معَ أني لا اشرب الخمرَ ... أوّاه ! ...
أنا الخمرُ والهوى والنعيم ...

فخذيني اليكِ ... صُبّي الطِلى منّي ...
ونشقى ... وما سوانا يدوم ...

ما تُرى قلتُ ؟ ... تأخذيني أنا ؟ ... عفوَ
جنوني ... وما أرى وأروم ...

أنا مَن يحتويك ... لي زنديَ الهائمُ
بالحسن ... والزنودُ تَهيم ...

وأنا القبلةُ التي أغرتِ الليلَ ...
ومنها كان الصباحُ العميم ...

أشتهيك ... آنزلِي وتطَرَّفَ عينُ
الزهر منّا ... ويستجيبَ الشميم ...

وإذا تُتعبين خُطّي على كُتْبِيَ ...
كُتبي قصائدٌ ونجوم ...

رُبَى!

تَعِب الإِبا
منكِ، يا رُبى

يا ركيزةَ
الصحو كوكبا

حُلْمُ مَن رَنا ...
نَقّشُ مَن صَبا ...

لا خُبئتِ والحسنُ
في خِبا،

وبقيتِ للشمس
ملعبا

لي طفولةٌ،
فوقُ ... لي شَبا ...

تَذكرينَ ؟ ... ما
كان أعذبا !

أنا، مرةً،
كنت مُغضَبا

ففهمتِني ...
قلتِ : مرحبا !

فوقَ صخريَ
اشحَذْهُ طيّبا

سيفَكَ الذي
صالَ ما نبا

يا رُبى ابنةَ
العزم والصِبا

أنبِئي ... اذا
يَصدُق النبا ...

أننيِ الرُبى
يومَ لا ربى ؟

مَن تُراها ابنةَ المنتهى ؟

مَن تُراها ابنةَ
المنتهى ؟ شجَره ؟

ام صِبا قامةٍ
فوقُ منتصره ؟

لا تصدّقْه لا
حجرَ السَحَره

خَطٌّ انسانةً ...
قُرئت نَمِره ...

أُنظُرِ، انظرْ الى
عينِها شَزِره

أخرست دمعةً
لِلضحى كدِره

صيَّرت قُبَّةَ
الشمس منتحره

فأنا والهوى
والدُّنى العطره

تحتَها لم نرَ
المنتهى لم نره ...

وادّعينا ... فلِمْ
يكذِب البرزَه ؟

ويحَ مَن شِعرُهم
ابداً شجره !...

بَحْر

أبيضٌ مِن غضَبٍ ... هل
يَضرِبُ الشطُّ بِبالي ؟

صفحتي، هذي التي
أكتُبُ، رجٌّ متتالِ

كَلِماتي النارُ ... بعضٌ
مِن مجاذيفِ ارتحال

لَيَ مِن نغمتِها ما
لَيَ من هَمِّ الليالي

طافرٌ فيها ... وتحتي
زورقٌ مجنونُ حال

بعثتهُ الحُلْمَ يوماً
غجريّاتُ الجمال

وإلى أين ؟ ... سَلِ العاصف
أو هدَّ الجبال

أنا بين الشيءِ واللاشيءِ
مرميُّ المآل

لونُ عينيَّ به أُضرِبُ
والكونُ سؤالي

أتُرى الردُّ أنْ أخلُقْ
أو فزِدْ حَبَّ الرِمال

لا ولا كنتُ لعطشانِ
الفَلا لَمْعةَ آل

ليضِعْ فيَّ أنا البحرُ
ويولَدْ في خيالي

واذا أشهَقُ أو أغرَقُ
في أبيضَ عال

قلمَ الهولِ، ألا
اكتُبْني على الموجِ لآلي

فهرست الكتاب

فهرست المجلد



